الأخسرونَ أعْمَالا!

جمعٌ وترتيبٌ

من خُطبٍ ومُحاضراتِ فضيلةِ الشَّيخِ

أبي عبدِ اللهِ محمَّدِ بنِ سعيدٍ رسلان

حفظهُ اللهُ تعالى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

الْخَسَارَةُ الْحَقِيقِيَّةُ

فَـ«إِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، وَإِنَّ مَنْ آثَرَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الدِّينِ فَقَدْ خَسِرَ الْخَسَارَةَ الْحَقِيقِيَّةَ مِنْ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ يَرْبَحُ»(١).

إِنَّ أَكْثَرَ الْخَاسِرِينَ خُسْرَانًا فِي الْآخِرَةِ الَّذِينَ بَاعُوا مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَاشْتَرَوْا عِوَضَهَا مَنَازِلَ فِي النَّارِ، وَهَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.(*).

إِنَّ الْخَاسِرِينَ حَقًّا كُلَّ شَيْءٍ هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْ صَارُوا إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ الْأَبَدِيِّ!(*/٢).

إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِلْقَائِهَا فِي الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ الْأَلِيمِ، وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!

فَانْتَبِهُوا وَتَأَكَّدُوا أَنَّ خُسْرَانَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ هُوَ الْخُسْرَانُ الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ!(*/٣).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠١٧).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [هود: ٢١].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الشورىٰ: ٤٥].

(*/ ٣) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الزمر: ١٥].

جَعَلَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- خَسَارَةَ النَّفْسِ فِي فَقْدِ الْإِيمَانِ، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى ضُمَّ إِلَى خَسَارِتِهِم لِأَنْفُسِهِمْ خَسَارَتُهُم لِأَهْلِيهِمْ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢].

«حَيْثُ خَسِرُوا الْإِيمَانَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَحَيْثُ فَاتَهُمُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ، وَحَيْثُ حَصَلَ لَهُمْ فِي مُقَابَلَةِ الْحَقِّ الصَّحِيحِ كُلُّ بَاطِلٍ قَبِيحٍ، وَفِي مُقَابَلَةِ النَّعِيمِ كُلُّ عَذَابٍ أَلِيمٍ، فَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢].

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِاخْتِيَارِهِمُ الشِّرْكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَانْقَطَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ كُلُّ الْأَسْبَابِ؛ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مَهْمَا دَمَغَتْهُمُ الْحُجَجُ، وَوُجِّهَتْ لَهُمُ الْمَوَاعِظُ وَالْإِنْذَارَاتُ؛ فَعَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِسَخَطِ اللهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ.(*).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: ١٢١].

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- أَنَّ الَّذِينَ آتَاهُمُ الْكِتَابَ، وَمَنَّ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَّةً مُطْلَقَةً؛ أَنَّهُمْ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أَيْ: يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، وَالتِّلَاوَةُ: الِاتِّبَاعُ، فَيُحِلُّونَ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ السُّعَدَاءُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ عَرَفُوا نِعْمَةَ اللهِ وَشَكَرُوهَا، وَآمَنُوا بِكُلِّ الرُّسُلِ، وَلَمْ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٤٤).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأنعام: ١٢].

يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، لَا مَنْ قَالَ مِنْهُمْ: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾»(١).

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْكِتَابِ بِتَحْرِيفِهِ وَيُنْكِرُ مَا فِيهِ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَأُولَئِكَ الْمُنْحَطُّونَ الْبَعِيدُونَ عَنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلِ رَحَمَاتِ اللهِ، هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ اسْتَبْدَلُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ، فَفَاتَهُمْ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَعِيمٍ دَائِمٍ وَمُقَامٍ كَرِيمٍ، وَيَخْلُدُونَ بَعْدَ هَذَا الْحِرْمَانِ فِي عَذَابٍ مُهِينٍ.(*).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

إِنَّ الدِّينَ الْمَقْبُولَ عِنْدَ اللهِ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ الِاسْتِسْلَامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَلِرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْخَاتَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَمُتَابَعَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَإِنَّ كُلَّ دِينٍ سِوَاهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ عِنْدَهُ؛ لِأَنَّ الدِّينَ الصَّحِيحَ مَا يَأْمُرُ اللهُ بِهِ، وَيَرْضَىٰ عَنْ فَاعِلِهِ، وَيُثِيبُهُ عَلَيْهِ.

وَمَنْ يَطْلُبْ بَعْدَ مَبْعَثِهِ ﷺ دِينًا غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَشَرِيعَةً غَيْرَ شَرِيعَتِهِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ذَلِكَ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ إِذْ صَارُوا إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ الْأَبَدِيِّ فِي جَهَنَّمَ.(*/٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٥٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [البقرة: ١٢١].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [آل عمران: ٨٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠].

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ يَعْرِفُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِصِفَاتِهِ الْمَكْتُوبَةِ عِنْدَهُمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، فَكَمَا أَنَّ أَبْنَاءَهُمْ لَا يَشْتَبِهُونَ أَمَامَهُمْ بِغَيْرِهِمْ فَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ لَا يَشْتَبِهُ بِغَيْرِهِ؛ لِدِقَّةِ وَصْفِهِ فِي كُتُبِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوا نُبُوَّتَهُ، وَأَنْكَرُوا مَعْرِفَتَهُ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ؛ فَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَوْبَقُوهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ بِإِنْكَارِهِمْ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﷺ.(*).

«﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أَيْ: فَوَّتُوهَا مَا خُلِقَتْ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَحَرَمُوهَا الْفَضْلَ مِنَ الْمَلِكِ الْمَجِيدِ، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فَإِذَا لَمْ يُوجَدِ الْإِيمَانُ مِنْهُمْ؛ فَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَسَارِ وَالشَّرِّ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُمْ»(٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٩].

وَمَنْ خَفَّتْ مَقَادِيرُ أَعْمَالِهِ الْمَوْزُونَةِ بِأَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ وَهُمُ الْكُفَّارُ؛ فَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّذِينَ غَبَنُوا أَنْفُسَهُمْ حُظُوظَهَا مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِ اللهِ وَعَظِيمِ كَرَامَتِهِ؛ بِسَبَبِ مَا كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَظْلِمُونَ بِتَرْكِهِمُ اتِّبَاعَ آيَاتِنَا الْمُنَزَّلَاتِ الَّتِي أَمَرْنَاهُمْ بِاتِّبَاعِهَا.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأنعام: ٢٠].

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٢٨١).

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأعراف: ٩].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٣].

هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَجَحَدُوا وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا.. هَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا تَحَقُّقَ مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ الْأَخْبَارُ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا مِنْ أَنْبَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ إِذْ تَتَحَقَّقُ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ فِي الْوَاقِعِ، وَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ؛ فَهَذَا مَا يَنْتَظِرُونَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَحَقُّقُ نُذُرِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

يَقُولُ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِالْقُرْآنِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ: إِنَّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ حَقٌّ وَصِدْقٌ، وَلَيْسَ لَنَا طَرِيقٌ إِلَىٰ الْخَلَاصِ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا أَنْ يَشْفَعَ لَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ رَبِّنَا، فَيَقْبَلُ اللهُ شَفَاعَتَهُ فَيُخَلِّصَنَا مِنْ هَذَا الْعَذَابِ، أَوْ نُرَدُّ إِلَىٰ الدُّنْيَا فَنَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا نُرْضِي بِهِ رَبَّنَا، غَيْرَ الْعَمَلِ السَّيِّءِ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فِيهَا.

قَدْ خَسِرَ الْكُفَّارُ أَنْفُسَهُمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ وَخُلُودِهِمْ فِيهَا، وَذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَخْتَلِقُونَ مِنْ أَكَاذِيبَ يَفْتَرُونَهَا عَلَىٰ اللهِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٢].

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنَّهُمْ لَمْ يُقِيمُوا فِي دِيَارِهِمْ وَلَمْ يَعِيشُوا فِيهَا مُتَنَعِّمِينَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأعراف: ٥٣].

مُسْتَغْنِينَ، وَكَانَ الْمُكَذِّبُونَ بِشُعَيْبٍ هُمْ وَحْدَهُمُ الْخَاسِرِينَ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِهَلَاكِهِمْ وَاسْتِئْصَالِهِمْ، وَخَسِرُوا آخِرَتَهُمْ؛ لِأَنَّ مَصِيرَهُمُ الْخُلُودُ فِي عَذَابِ الْحَرِيقِ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْقَرَارُ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ فَهُوَ الْمُهْتَدِي، وَمَنْ يَحْكُمِ اللهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ضَالِّينَ بِاخْتِيَارِهِمْ؛ فَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَهُمُ الْخَاسِرُونَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ؛ إِذْ حَرَمُوهَا مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ، كَانُوا ضَالِّينَ فَتَرَكَهُمُ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي ضَلَالِهِمْ يَعْمَهُونَ.(*/٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [هود: ٢١].

أُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَبَطُلَ كَذِبُهُمْ وَإِفْكُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ عَلَىٰ اللهِ وَادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ، لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ حَقًّا، وَثَبَتَ كَوْنُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرَ الْخَاسِرِينَ خُسْرَانًا؛ لِأَنَّهُمْ بَاعُوا مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَاشْتَرَوْا عِوَضَهَا مَنَازِلَ فِي النَّارِ، وَهَذَا هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ.(*/٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأعراف: ٩٢].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأعراف: ١٧٨].

(*/ ٣) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [هود: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٤].

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَقَادِيرُ أَعْمَالِهِ الْمَوْزُونَةِ بِأَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَىٰ سَيِّئَاتِهِ فَأُولَئِكَ الْفُضَلَاءُ رَفِيعُو الْمَنْزِلَةِ، وَهُمُ الْفَائِزُونَ بِالْجَنَّةِ الْمُنَعَّمُونَ بِهَا وَبِمَا فِيهَا، وَمَنْ خَفَّتْ مَقَادِيرُ أَعْمَالِهِ الْمَوْزُونَةِ بِأَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَىٰ حَسَنَاتِهِ -وَأَعْظَمُهَا الشِّرْكُ-، فَأُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، يُعَذَّبُونَ فِيهَا بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَأَشَدُّهَا عَذَابُ الْحَرِيقِ.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾: تَمَسُّ النَّارُ وُجُوهَهُمْ وَسَائِرَ أَجْسَادِهِمْ فَتُحْرِقُهَا إِحْرَاقًا غَيْرَ مُنْضِجٍ لِلُحُومِهَا وَعَظْمِهَا، وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ عَابِسُونَ، وَقَدْ بَدَتْ أَسْنَانُهُمْ، وَتَقَلَّصَتْ شِفَاهُهُمْ حَتَّىٰ تَكُونَ الشَّفَةُ الْعُلْيَا لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ فِي مُنْتَصَفِ رَأْسِهِ، وَأَمَّا الْأُخْرَىٰ فَمُدَلَّاةٌ، وَهُوَ مَنْظَرٌ مِنْ أَقْبَحِ مَا يَكُونُ مَنْظَرًا، وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى: ٤٥].

وَلَكِنْ تَرَىٰ -أَيُّهَا الرَّائِي- هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ جَهَنَّمَ خَاضِعِينَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [المؤمنون: ١٠٢-١٠٤].

مُتَضَائِلِينَ مُنْكَسِرِينَ مِمَّا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الذُّلِّ، يَرْمُونَ بِأَبْصَارِهِمْ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَوَاقِعِ عَذَابِهِمْ فِي النَّارِ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ؛ خَوْفًا مِنْهَا، وَخَجَلًا مِنْ أَهْلِ الْمَحْشَرِ.

وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمُ الْبُشْرَىٰ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وَبَعْدَ أَنْ شَاهَدُوا أَهْلَ النَّارِ عَلَىٰ أَبْوَابِهَا أَذِلَّاءَ مُنْكَسِرِينَ قَالُوا: إِنَّ الْخَاسِرِينَ حَقًّا كُلَّ شَيْءٍ هُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْ صَارُوا إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ الْأَبَدِيِّ.

تَنَبَّهُوا وَتَأَكَّدُوا إِنَّ الظَّالِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي عَذَابٍ دَائِمٍ مُسْتَمِرٍّ شَدِيدٍ لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ وَلَا يَزُولُ.(*).

❁❁❁

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الشورىٰ: ٤٥].

وَهمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا!

عِبَادَ اللهِ! إِنَّ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ وَجَدُوا أَنْ سَعْيَهُمُ الَّذِي كَانُوا قَدْ سَعَوْهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِتَحْقِيقِ مَا كَانُوا يَطْمَحُونَ لَهُ مِنْ سَعَادَاتٍ قَدْ ضَاعَ ضَيَاعًا تَامًّا، فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ نَافِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.(*).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

«قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ -عَلَىٰ وَجْهِ التَّحْذِيرِ وَالْإِنْذَارِ-: هَلْ أُخْبِرُكُمْ بِأَخْسَرِ النَّاسِ أَعْمَالًا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ؟

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: بَطَلَ وَاضْمَحَلَّ كُلُّ مَا عَمِلُوهُ مِنْ عَمَلٍ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ فِي صُنْعِهِ، فَكَيْفَ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْلَمُونَ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّهَا مُحَادَّةٌ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ وَمُعَادَاةٌ؟!!

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الزمر: ١٠٣-١٠٤].

فَمَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَسِرَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ أَيْ: جَحَدُوا الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ وَالْآيَاتِ الْعِيَانِيَّةَ الدَّالَّةَ عَلَىٰ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَرُسُلِهِ، وَكُتُبِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

فَحَبِطَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾؛ لِأَنَّ الْوَزْنَ فَائِدَتُهُ مُقَابَلَةُ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ، وَالنَّظَرُ فِي الرَّاجِحِ مِنْهَا وَالْمَرْجُوحِ، وَهَؤُلَاءِ لَا حَسَنَاتِ لَهُمْ لِعَدَمِ شَرْطِهَا، وَهُوَ الْإِيمَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾، لَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَىٰ، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُخْزَوْنَ بِهَا عَلَىٰ رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، ثُمَّ يُعَذَّبُونَ عَلَيْهَا.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ أَيْ: حُبُوطُ أَعْمَالِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يُقَامُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا؛ لِحَقَارَتِهِمْ وَخِسَّتِهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ، وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِهِ وَرُسُلَهِ هُزُوًا يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَيَسْخَرُونَ مِنْهَا، مَعَ أَنَّ الْوَاجِبَ فِي آيَاتِ اللهِ وَرُسُلِهِ الْإِيمَانُ التَّامُّ بِهَا، وَالتَّعْظِيمُ لَهَا، وَالْقِيَامُ بِهَا أَتَمَّ الْقِيَامِ، وَهَؤُلَاءِ عَكَسُوا الْقَضِيَّةَ، فَانْعَكَسَ أَمْرُهُمْ، وَتَعِسُوا، وَانْتَكَسُوا فِي الْعَذَابِ»(١).

أُولَئِكَ الْأَخْسَرُونَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمُ الْكَوْنِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ وَالْإِعْجَازِيَّةِ وَالْجَزَائِيَّةِ، وَكَفَرُوا بِالْبَعْثِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، فَبَطُلَتْ أَعْمَالُهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ فِي صَحَائِفِهِمْ إِلَّا السَّيِّئَاتُ، فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِيزَانًا نَزِنُ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٥٦٧).

بِهِ حَسَنَاتِهِمْ؛ إِذْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ لَهُمْ حَسَنَاتٌ تُوزَنُ فِي كِفَّةِ الْحَسَنَاتِ.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾: ذَلِكَ مَنْزِلُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَذَابٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاتِّخَاذِهِمْ آيَاتِي الْبَيَانِيَّةِ الْمُنَزَّلَاتِ عَلَىٰ رُسُلِي مَهْزُوءًا بِهَا وَمَسْخُورًا مِنْهَا.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨].

«يَقُولُ تَعَالَىٰ: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ عَمَلُهُ السَّيِّئُ الْقَبِيحُ؛ زَيَّنَهُ لَهُ الشَّيْطَانُ، وَحَسَّنَهُ فِي عَيْنِهِ، ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أَيْ: كَمَنْ هَدَاهُ اللهُ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالدِّينِ الْقَوِيمِ، فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا؟!

فَالْأَوَّلُ: عَمِلَ السَّيِّئَ، وَرَأَىٰ الْحَقَّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ حَقًّا، وَالثَّانِي: عَمِلَ الْحَسَنَ، وَرَأَىٰ الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَلَكِنَّ الْهِدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ بِيَدِ اللهِ -تَعَالَىٰ-؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: عَلَىٰ الضَّالِّينَ الَّذِينَ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ، وَصَدَّهُمُ الشَّيْطَانُ عَنِ الْحَقِّ ﴿حَسَرَٰتٍ﴾، فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ هُدَاهُمْ شَيْءٌ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾»(٢).

أَفَمَنْ شُبِّهَ لَهُ وَمُوِّهَ عَلَيْهِ قَبِيحُ عَمَلِهِ، بِتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ،

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الزمر: ١٠٥-١٠٦].

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٠٤).

فَرَأَىٰ الْبَاطِلَ حَقًّا، كَمَنْ هَدَاهُ اللهُ فَرَأَىٰ الْحَقَّ حَقًّا وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا؟! لَا يَسْتَوِيَانِ.

فَإِنَّ اللهَ يَحْكُمُ فِي مَحْكَمَةِ يَوْمِ الدِّينِ عَلَىٰ مَنْ ضَلَّ بِإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالضَّلَالِ، وَلِمَنِ اهْتَدَىٰ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ بِالْهِدَايَةِ، بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ الْمُطْلَقَةِ الْحَكِيمَةِ الْقَائِمَةِ عَلَىٰ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ.

فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ تَذْهَبُ مِنْ جَسَدِكَ بِالْمَوْتِ بِسَبَبِ تَوَالِي الْحَسَرَاتِ وَشِدَّةِ الْأَحْزَانِ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْكُفْرَ، بَلْ قَابِلْ حِكْمَةَ اللهِ فِي مَقَادِيرِهِ وَتَدْبِيرَاتِهِ بِالتَّسْلِيمِ التَّامِّ.

إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ، حَتَّىٰ مُكْتَسَبَاتِ قُلُوبِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ.(*).

وَمِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ** -يَعْنِي: مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ-، **فَأُتِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَعَرَّفَهُ** -أَيِ: اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ- **نِعَمَهُ عَلَيْهِ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟**

قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [فاطر: ٨].

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَيَقُولُ لَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ: كَذَبْتَ، وَإِنَّمَا قَاتَلْتَ لِكَيْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، وَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ فَيُسْحَبُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ».

وَأَمَّا الثَّانِي الَّذِي يُقْضَىٰ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيهَا: «فَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَيُؤْتَىٰ بِهِ، فَيُعَرِّفُهُ نِعَمَهُ عَلَيْهِ، فَيَعْرِفُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: فَمَا صَنَعْتَ فِيهَا؟

فَيَقُولُ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتَهُ لِأَجْلِكَ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ.

فَيُقَالُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَإِنَّمَا تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتَهُ لِكَيْ يُقَالَ: فُلَانٌ عَالِمٌ، وَقَدْ قِيلَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِكَيْ يُقَالَ: فُلَانٌ قَارِئٌ، وَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ فَيُسْحَبُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ».

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ رَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ جَمِيعِهِ، وَأَعْطَاهُ؛ فَهُوَ يُنْفِقُ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ للهِ مِنَ الْمَالِ الَّذِي أَعْطَاهُ إِيَّاهُ بِالْأَصْبَاحِ وَبِالْأَمْسَاءِ؛ فَيُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ بَعْدَ أَنْ يُعَرِّفَهُ نِعَمَهُ عَلَيْهِ فَيَعْرِفَهَا: فَمَا صَنَعْتَ فِيهَا؟

فَيَقُولُ: أَنْفَقْتُ لَكَ وَلِأَجْلِكَ.

فَيُقَالُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَإِنَّمَا أَنْفَقْتَ الْمَالَ لِكَيْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، وَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ فَيُسْحَبُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ».(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «عَلَامَ تَبِيعُ الْجَنَّةَ؟!!».

التَّرْهِيبُ مِنْ سَبِيلِ الْخَسَارَةِ الْحَقِيقِيَّةِ

إِنَّ أَكْبَرَ سُبُلِ الْخَسَارَةِ الْحَقِيقِيَّةِ الشِّرْكُ بِاللهِ جَلَّوَعَلَا؛ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ -مَعَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ- أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢].

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا سِوَىٰ اللهِ، وَكَفَرُوا بِاللهِ مَعَ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ أُولَئِكَ الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ فِي اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِذْ قَذَفُوا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَىٰ عَذَابٍ أَبَدِيٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ مِنْ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَكَفَرُوا بِاللهِ الْمُسْتَحِقِّ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَةِ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ لِاسْتِبْدَالِهِمُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

قُلْ -يَا رَسُولَ اللهِ-: أَنِّي أَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا أَعْبُدُ أَحَدًا غَيْرَهُ، مُخْلِصًا لَهُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [العنكبوت: ٥٢].

الدِّينَ مِنْ كُلِّ شَوَائِبِ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ، فَاعْبُدُوا أَنْتُمْ -أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ- مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَحَمَّلُوا نَتَائِجَ اخْتِيَارَاتِكُمْ.

قُلْ -يَا رَسُولَ اللهِ-: إِنَّكُمْ إِذَا عَبَدْتُمْ أَحَدًا مِنْ دُونِ اللهِ خَسِرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ وَجُزِيتُمْ بِعَذَابٍ شَدِيدٍ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ شِرْكِكُمْ.

إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِلْقَائِهَا فِي الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ الْأَلِيمِ، وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

انْتَبِهُوا وَتَأَكَّدُوا أَنَّ خُسْرَانَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ هُوَ الْخُسْرَانُ الْبَيِّنُ الْوَاضِحُ.(*).

وَقَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر: ٦٣].

هُوَ -سُبْحَانَهُ- وَحْدَهُ لَهُ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْمَعَادِنِ وَالْقُوَىٰ؛ فَهُوَ مَالِكُ أَمْرِهَا، وَحَافِظُهَا، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا.

وَالَّذِينَ جَحَدُوا بِآيَاتِ اللهِ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْجَزَائِيَّةِ الْعِقَابِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْبَيَانِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَىٰ رُسُلِهِ، أُولَئِكَ الْمُنْحَطُّونَ الْبُعَدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ هُمُ الْخَاسِرُونَ؛ لِأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ بِإِرَادَاتِهِمْ وَاخْتِيَارَاتِهِمْ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الزمر: ١٤-١٥].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الزمر: ٦٣].

فَعَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَحْذَرَ مِنَ الشِّرْكِ وَمِنْ كُلِّ الْوَسَائِلِ الْمُفْضِيَةِ إِلَيْهِ؛ فَالشِّرْكُ أَكْبَرُ أَسْبَابِ الْخَسَارَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَالْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْعَبْدِ.

إِنَّ التَّوْحِيدَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، فَإِذَا مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَىٰ الْعَبْدِ، وَحَفِظَهَا عِلْمًا وَعَمَلًا؛ فَعَلَيْهِ الْخَوْفُ مِنْ زَوَالِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، بِمَعْرِفَةِ مَا يُضَادُّهَا -وَهُوَ الشِّرْكُ-، وَالْخَوْفِ مِنْهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥].

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾: اجْعَلْنِي وَبَنِيَّ فِي جَانِبٍ، وَاجْعَلْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ فِي جَانِبٍ آخَرَ.

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾: وَالْأَصْنَامُ: جَمْعُ صَنَمٍ، وَالصَّنَمُ: مَا كَانَ مَنْحُوتًا عَلَىٰ شَكْلِ صُورَةٍ.

وَأَمَّا حَقِيقَةُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ: فَهُوَ صِدْقُ الِالْتِجَاءِ إِلَىٰ اللهِ وَالِاعْتِصَامِ بِهِ، وَأَنْ يُفَتِّشَ الْإِنْسَانُ عَنِ الشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ وذَرَائِعِهِ -أَيْ: وَسَائِلِهِ-، وَمَهَالِكِهِ؛ فَيَحْذَرَ مِنْهُ.

وَقَدْ كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»[١]. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَحَسَّنَهُ لِغَيْرِهِ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

---

(١) أخرجه الترمذي في «**الجامع**»: ٥/ ٥٣٨، رقم (٣٥٢٢)، من حديث: أم سلمة رضي الله عنها.

قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَفِي البَابِ عَنْ عَائِشَةَ وَالنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ وَأَنَسٍ =

الشِّرْكُ: هُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ، وَهُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ، وَأَقْبَحُ الْقَبَائِحِ؛ وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ ﷻ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وَأَمَّا أَقْسَامُهُ: فَالشِّرْكُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ شِرْكًا أَكْبَرَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ شِرْكًا أَصْغَرَ.

الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ: هُوَ تَسْوِيَةُ غَيْرِ اللهِ بِاللهِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ؛ كَدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ، وَالذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهَذَا كُلُّهُ شِرْكٌ أَكْبَرُ.

وَأَمَّا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ: فَهُوَ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّهُ شِرْكٌ وَلَمْ يَصِلْ إِلَىٰ حَدِّ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ، كَالْحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ، وَقَوْلِ الْقَائِلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ.

عِبَادَ اللهِ! الْأَنْبِيَاءُ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كَانُوا يَخَافُونَ مِنَ الشِّرْكِ؛ فَهَذَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ ﵇ خَافَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَعَلَىٰ بَنِيهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ أُمَّةً وَحْدَهُ، وكَسَّرَ الْأَصْنَامَ بِيَدِهِ، فَدَعَا رَبَّهُ لِنَفْسِهِ وَلِبَنِيهِ أَنْ يُجَنِّبَهُمُ اللهُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ؛ لَمَّا رَأَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ قَدِ افْتُتِنَ بِهَا: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

فَكَثْرَةُ الْهَالِكِينَ بَاعِثَةٌ عَلَىٰ الْخَوْفِ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ وَالضَّلَالِ، وَمَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ ﵇؟!!

=

وَجَابِرٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو وَنُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ»، والحديث حسنه لغيره الألباني في «**الصحيحة**»: ٥/ ١٢٦، رقم (٢٠٩١).

فَإِذَا كَانَ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- خَافَ الشِّرْكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ -وَهُوَ مَنْ هُوَ- وَخَافَهُ عَلَىٰ بَنِيهِ؛ فَنَحْنُ أَوْلَىٰ بِالْخَوْفِ مِنْهُ.

فَيَجِبُ الْحَذَرُ مِنَ الشِّرْكِ كُلِّهِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ فِيهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ بِسُؤَالِهِمْ قَضَاءَ الْحَاجَاتِ، وَتَفْرِيجَ الْكُرُبَاتِ، وَبِالنَّذْرِ وَالذَّبْحِ لَهُمْ، وَطَلَبِ الشَّفَاعَةِ مِنْهُمْ؛ وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَا كَفَّارَةَ لِهَذَا الشِّرْكِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ للهِ وَحْدَهُ، وَإِلَّا فَمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ وُجُوبًا.

وَالْخَوْفُ: هُوَ تَوَقُّعُ مَكْرُوهٍ، وَهُوَ ضِدُّ الْأَمْنِ.

وَالشِّرْكُ: هُوَ صَرْفُ شَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ ﷻ.(*).

إِنَّ الْمُشْرِكَ مُوَزَّعُ الْقَلْبِ، مُقَلْقَلُ الْبَالِ، لَا يَهْدَأُ لَهُ ضَمِيرٌ، وَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَىٰ حَالٍ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ يُحَرِّمُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَيُوجِبُ لَهُ النَّارَ وَالْخُلُودَ فِيهَا، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَهُوَ فِي الْحَيَاةِ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُوَ أَضَلُّ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ السَّابِعَةُ: بَابٌ: الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ» - الْأَحَدُ ٢٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ٢٠-٧-٢٠١٤م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ١٢ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ =

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]: أَيْ؛ لَا يَعْفُو عَنْ عَبْدٍ لَقِيَهُ وَهُوَ يَعْبُدُ غَيْرَهُ.

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ٤٨]: أَيْ؛ يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ مِنَ الذُّنُوبِ.

﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]: أَيْ؛ لِمَنْ يَشَاءُ الْمَغْفِرَةَ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ، حَسَبَ فَضْلِهِ وَحِكْمَتِهِ.

اللهُ -سُبْحَانَهُ- يُخْبِرُ خَبَرًا مُؤَكَّدًا، أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِعَبْدٍ لَقِيَهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ بِهِ؛ لِيُحَذِّرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الشِّرْكِ، وَأَنَّهُ يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ مِنَ الذُّنُوبِ لِمَنْ يَشَاءُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ؛ تَفَضُّلًا وَإِحْسَانًا؛ لِئَلَّا نَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ عَجَّلَ.

وَقَالَ الْخَلِيلُ عليه السلام -الْخَلِيلُ: هُوَ الَّذِي بَلَغَ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ؛ وَالْمُرَادُ: إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا-: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥]: اجْعَلْنِي وَإِيَّاهُمْ فِي جَانِبٍ وَحَيِّزٍ بَعِيدٍ عَنْ ذَلِكَ.

وَالْأَصْنَامُ: جَمْعُ صَنَمٍ، وَهُوَ: مَا كَانَ مَنْحُوتًا عَلَىٰ صُورَةِ الْبَشَرِ، أَوْ عَلَىٰ صُورَةِ أَيِّ حَيَوَانٍ، وَالْوَثَنُ أَعَمُّ؛ فَكُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ يُسَمَّىٰ: وَثَنًا، وَفِي الْحَدِيثِ: «**لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(١).

=

١٤٣٣هـ|٢٨-٠٩-٢٠١٢م.

(١) أخرجه مالك في «**الموطأ**» رواية يحيىٰ: ١/ ١٧٣، رقم (٨٥)، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، مرسلا.

وأخرجه موصولا: الحميدي في «**المسند**»: ٢/ ٢٢٤، رقم (١٠٥٥)، وابن سعد في =

دَعَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- رَبَّهُ ﷻ: أَنْ يَجْعَلَهُ هُوَ وَبَنِيهِ فِي جَانِبٍ بَعِيدٍ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَأَنْ يُبَاعِدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا؛ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ بِهَا عَظِيمَةٌ وَلَا يَأْمَنُ الْوُقُوعَ فِيهَا.

الْآيَتَانِ تَدُلَّانِ عَلَىٰ وُجُوبِ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ.

فِي الْآيَتَيْنِ: أَنَّ الشِّرْكَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْبَرَ: أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ، وَأَنَّ مَا عَدَا الشِّرْكَ مِنَ الذُّنُوبِ إِذَا لَمْ يَتُبْ مِنْهُ الْعَبْدُ؛ فَهُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ غَفَرَهُ بِلَا تَوْبَةٍ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ بِهِ، فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ خُطُورَةِ الشِّرْكِ -أَيْضًا-.

وَفِيهِمَا: الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ؛ فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ، وَهُوَ إِمَامُ الْحُنَفَاءِ الَّذِي كَسَّرَ الْأَصْنَامَ بِيَدِهِ خَافَ الشِّرْكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُ؟!!

وَفِيهِمَا: الرَّدُّ عَلَىٰ الْجُهَّالِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا يَقَعُ الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَأَمِنُوا مِنْهُ، فَوَقَعُوا فِيهِ؛ وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ

=

«**الطبقات الكبرىٰ**»: ٢/ ٢٤١-٢٤٢، وأحمد في «**المسند**»: ٢/ ٢٤٦، والبخاري في «**التاريخ الكبير**»: ٣/ ٤٧، ترجمة (١٧٧)، والبزار في «**المسند**»: ١٦/ ٤٨، رقم (٩٠٨٧)، وأبو يعلىٰ في «**المسند**»: ١٢/ ٣٣، رقم (٦٦٨١)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والحديث صحح إسناده الألباني في هامش «**تحذير الساجد**»: ص١٨، وقال: «وله شاهد مرسل عن زيد بن أسلم، وإسناده قوي، وآخر عن عطاء بن يسار، وسنده صحيح».

بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ؟!!»[(١)]. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَهَذَا يُوجِبُ لِلْقَلْبِ الْحَيِّ أَنْ يَخَافَ مِنَ الشِّرْكِ.

هَذِهِ الْآيَةُ، وَهِيَ قَوْلُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]: قِيلَ: الْمُرَادُ بِبَنِيهِ: بَنُوهُ لِصُلْبِهِ، وَلَا نَعْلَمُ لَهُ مِنْ صُلْبِهِ سِوَىٰ إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ ذُرِّيَّتُهُ وَمَا تَوَالَدَ مِنْ صُلْبِهِ، وَهَذَا هُوَ الْأَرْجَحُ، وَذَلِكَ لِلْآيَاتِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ لِلنَّاسِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

وَلَكِنْ كَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَلَّا تُجَابَ دَعْوَتُهُ فِي بَعْضِهِمْ؛ كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ دَعَا رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَ أُمَّتِهِ بَيْنَهُمْ، فَلَمْ يُجِبِ اللهُ دُعَاءَهُ[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في «**جامع البيان**»: ١٣/ ٢٢٨، بإسناد صحيح، عَنْ الْمُغِيرَةَ، قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ يَقُولُ: «مَنْ يَأْمَنُ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَ خَلِيلِ اللهِ إِبْرَاهِيمَ، حِينَ يَقُولُ: رَبِّ ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]».

وعزاه السيوطي في «**الدر المنثور**»: ٤/ ٨٦، إلىٰ ابن أبي حاتم أيضا.

(٢) أخرج مسلم في «**الصحيح**»: ٤/ ٢٢١٦، رقم (٢٨٩٠)، من حديث: سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ، حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**».

وَأَيْضًا، يَمْنَعُ مِنَ الْأَوَّلِ: أَنَّ الْآيَةَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ، وَلَيْسَ لِإِبْرَاهِيمَ مِنَ الْأَبْنَاءِ سِوَىٰ إِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ.

وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﴿اجْنُبْنِي﴾: أَيِ: اجْعَلْنِي فِي جَانِبٍ وَالْأَصْنَامَ فِي جَانِبٍ؛ وَهَذَا أَبْلَغُ مِمَّا لَوْ قَالَ: امْنَعْنِي وَبَنِيَّ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي جَانِبٍ عَنْهَا كَانَ أَبْعَدَ.(*).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَإِذَا كَانَ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ يَخَافُ هَذَا الشِّرْكَ، وَيَدْعُو رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُنَجِّيَهُ مِنْهُ، فَكَيْفَ بِنَا نَحْنُ؟!!

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! إِنَّ الشِّرْكَ مَهَانَةٌ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، وَقَضَاءٌ عَلَىٰ عِزَّةِ النَّفْسِ، وَسَبَبٌ لِلذِّلَّةِ وَالْمَهَانَةِ دُنْيَا وَآخِرَةً، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ؛ فَلَا عِزَّةَ لَهُ.

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَلَا تَتَحَقَّقُ فِيهِمُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْحَقَّةُ إِلَّا إِذَا حَقَّقُوا الْغَرَضَ الَّذِي لِأَجْلِهِ خَلَقَهُمُ اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وَإِذَا لَمْ يُحَقِّقُوهُ تَمَزَّقَتْ نُفُوسُهُمْ.

فَالشِّرْكُ يُمَزِّقُ وَحْدَةَ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ السَّابِعَةُ: بَابٌ: الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ» - الْأَحَدُ ٢٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ٢٠-٧-٢٠١٤م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» - الْجُمُعَةُ ١٢ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ =

يَجِبُ أَنْ نَخَافَ مِنَ الشِّرْكِ مَا دَامَتْ هَذِهِ عُقُوبَتَهُ، فَالْمُشْرِكُ خَسِرَ الْآخِرَةَ؛ لِأَنَّهُ فِي النَّارِ خَالِدٌ، وَخَسِرَ الدُّنْيَا -أَيْضًا-؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنْهَا شَيْئًا، قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَجَاءَهُ النَّذِيرُ وَلَكِنَّهُ خَسِرَ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-، مَا اسْتَفَادَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١١-١٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

فَخَسِرَ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنْهَا شَيْئًا، وَخَسِرَ أَهْلَهُ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، فَلَا يَتَمَتَّعُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ كَانُوا فِي النَّارِ فَكَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا.

وَالشِّرْكُ خَفِيٌّ جِدًّا، فَقَدْ يَكُونُ فِي الْإِنْسَانِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ إِلَّا بَعْدَ الْمُحَاسَبَةِ الدَّقِيقَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «مَا جَاهَدْتُ نَفْسِي عَلَىٰ شَيْءٍ مَا جَاهَدْتُهَا

=

١٤٣٣هـ|٢٨-٠٩-٢٠١٢م.

عَلَىٰ الْإِخْلَاصِ».

الشِّرْكُ أَمْرُهُ صَعْبٌ جِدًّا لَيْسَ هُوَ بِالْهَيِّنِ، وَلَكِنْ يُيَسِّرُ اللهُ الْإِخْلَاصَ عَلَىٰ الْعَبْدِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَجْعَلَهُ اللهُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ، فَيَقْصِدَ بِعَمَلِهِ وَجْهَ اللهِ، لَا يَقْصِدُ مَدْحَ النَّاسَ أَوْ ذَمَّهَمْ أَوْ ثَنَاءَهُمْ عَلَيْهِ، فَالنَّاسُ لَا يَنْفَعُونَهُ أَبَدًا، حَتَّىٰ لَوْ خَرَجُوا مَعَهُ لَتَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ، لَمْ يَنْفَعْهُ إِلَّا عَمَلُهُ.(*).

❊❊❊

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِتَصَرُّفٍ وَاخْتِصَارٍ مِنْ: «شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ» - «الْمُحَاضَرَةُ السَّابِعَةُ: بَابٌ: الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ» - الْأَحَدُ ٢٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٥هـ| ٢٠-٧-٢٠١٤م.

الْبِدْعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ.. وَنَصِيبٌ مِنَ الْخَسَارَةِ

إِنَّ مِمَّنْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، وَلَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْخَسَارَةِ الْمُبْتَدِعَةَ(١)، وَالْبِدْعَةُ شَرٌّ مِنَ الْكَبِيرَةِ، وَهُوَ أَنَّ صَاحِبَ الْبِدْعَةِ لَا يُوَفَّقُ لِلتَّوْبَةِ، وَيُصِرُّ عَلَىٰ بِدْعَتِهِ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ بَلِ الْأَغْلَبُ، بِخِلَافِ صَاحِبِ الْمَعْصِيَةِ؛ فَإِنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّهُ مُخْطِئٌ وَأَنَّهُ مُخَالِفٌ، فَسَرْعَانَ مَا يَتُوبُ؛ لِأَنَّهُ يَخَافُ مِنَ اللهِ، وَيَخْشَىٰ مِنَ الْعُقُوبَةِ.

وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ قَوْلَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَىٰ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ؛ فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ يُتَابُ مِنْهَا، وَأَمَّا الْبِدْعَةُ فَلَا يُتَابُ مِنْهَا».

ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ(٢): «إِنَّ الْمُبْتَدِعَ الَّذِي يَتَّخِذُ دِينًا لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ وَلَا رَسُولُهُ قَدْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا، فَهُوَ لَا يَتُوبُ مَا دَامَ يَرَاهُ

---

(١) سُئل الشيخ العلَّامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: «قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف: ١٠٣]، هل يدخل في ذلك المبتدعة؟

الجواب: «لهم نصيب من الخسارة، لكنَّ الخسارة التامَّة تكون للمشركين الكفار، لكن المبتدع فيه تفصيل؛ إن كفر فهو معهم، وإن لم يكفر فهو علىٰ خطرٍ لبدعته».

الموقع الرسمي للشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «هل يدخل المبتدعة في وصف: (الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا)؟».

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٩).

حَسَنًا؛ لِأَنَّ أَوَّلَ التَّوْبَةِ الْعِلْمُ بِأَنَّ فِعْلَهُ سَيِّءٌ لِيَتُوبَ مِنْهُ، أَوْ بِأَنَّهُ تَرَكَ حَسَنًا مَأْمُورًا بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ لِيَتُوبَ وَيَفْعَلَهُ، فَمَا دَامَ يَرَىٰ فِعْلَهُ حَسَنًا وَهُوَ سَيِّءٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَإِنَّهُ لَا يَتُوبُ».(*).

وَمِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فِي ذَمِّ الْبِدَعِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: هُوَ سَبِيلُ اللهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ، وَهُوَ السُّنَّةُ.

وَالسُّبُلُ: هِيَ سُبُلُ أَهْلِ الْبِدَعِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾** [النور: ٦٣].

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ: فِي قُلُوبِهِمْ؛ مِنْ كُفْرٍ، أَوْ نِفَاقٍ، أَوْ بِدْعَةٍ.

وَالْآيَاتُ فِي الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْتِزَامِ مَنْهَجِهِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَفِي الْأَمْرِ بِالِاتِّبَاعِ نَهْيٌ عَنِ الِابْتِدَاعِ وَذَمٌّ لَهُ.

وَمِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

[الأحزاب: ٣٦].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ فَضْلِ الْإِسْلَامِ» - الْأَحَدُ ٢١ مِنْ رَجَبٍ ١٤٣٦هـ| ١٠-٥-٢٠١٥م.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ فِي ذَمِّ الِابْتِدَاعِ وَالنَّهْيِ عَنْهَا، وَالْأَمْرِ بِالِاتِّبَاعِ وَالْحَضِّ عَلَيْهِ: قَوْلُهُ ﷺ: «**مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ: قَوْلُهُ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ**»(٢). أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وَمِنَ الْآثَارِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي ذَمِّ الْبِدَعِ وَالتَّنْفِيرِ مِنْهَا: قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ(٣): «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفِيتُمْ كُلَّ ضَلَالَةٍ».

وَمِنَ الْآثَارِ: قَوْلُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ(٤): «الْبِدْعَةُ أَحَبُّ إِلَىٰ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، الْمَعْصِيَةُ يُتَابُ مِنْهَا، وَالْبِدْعَةُ لَا يُتَابُ مِنْهَا».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٠٢)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٠).

(٣) أخرجه وكيع في «الزهد» (٣١٥)، وأحمد في «الزهد» (٨٩٦).

(٤) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٢٣٨).

وَمِنَ الْآثَارِ: قَوْلُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «لِأَنْ يَلْقَىٰ اللهَ الْعَبْدُ بِكُلِّ ذَنْبٍ مَا خَلَا الشِّرْكَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَهْوَاءِ».

الْبِدَعُ -عِبَادَ اللهِ- كُلُّهَا ضَلَالَاتٌ وَزَيْغٌ، وَالشُّؤْمُ لَاحِقٌ الْمُبْتَدِعَ حَالًا وَمَآلًا، وَشُؤْمُ الْبِدَعِ عَلَىٰ وُجُوهٍ هِيَ:

*** الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْبِدْعَةَ لَا يُقْبَلُ مَعَهَا عَمَلٌ.**

كَبِدْعَةِ الْقَدَرِيَّةِ حَيْثُ قَالَ فِيهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ -يَعْنِي: الْقَدَرِيَّةَ- فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»(٢). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

وَكَمَا فِي حَدِيثِ الْخَوَارِجِ، وَقَدْ قَالَ فِيهِ ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. **يَمْرُقُونَ أَيْ**: يَخْرُجُونَ، **الرَّمِيَّةُ**: الصَّيْدُ الْمَرْمِيُّ.

كُلُّ مُبْتَدِعٍ يُخَافُ عَلَيْهِ مِثْلُ مَا ذُكِرَ؛ فَإِنَّ كَوْنَ الْمُبْتَدِعِ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ؛ إِمَّا أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ بِإِطْلَاقٍ، وَإِمَّا أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ مَا ابْتَدَعَ فِيهِ خَاصَّةً دُونَ مَا لَمْ يَبْتَدِعْ فِيهِ.

*** الْوَجْهُ الثَّانِي مِنْ وُجُوهِ شُؤْمِ الْبِدْعَةِ هُوَ: أَنَّ صَاحِبَ الْبِدْعَةِ مَلْعُونٌ عَلَىٰ لِسَانِ الشَّرِيعَةِ**، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -وَذَكَرَ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ-: «**مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا**

---

(١) أخرجه البيهقي في «الكبرىٰ» (١٠/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٨).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

* **وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُوَقِّرَ لِصَاحِبِ الْبِدْعَةِ مُعِينٌ عَلَىٰ هَدْمِ الْإِسْلَامِ؛** لِأَنَّ الْمَشْيَ إِلَىٰ صَاحِبِ الْبِدْعَةِ وَالتَّوْقِيرَ لَهُ تَعْظِيمٌ لَهُ لِأَجْلِ بِدْعَتِهِ.

* **وَأَمَّا الْوَجْهُ الرَّابِعُ مِنْ وُجُوهِ شُؤْمِ الْبِدَعِ فَهُوَ: أَنَّ الْبِدَعَ رَافِعَةٌ لِلسُّنَنِ الَّتِي تُقَابِلُهَا؛** لِأَنَّ الْبَاطِلَ إِذَا عُمِلَ بِهِ، لَزِمَ تَرْكُ الْعَمَلِ بِالْحَقِّ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **قَالَ**(٢): «مَا يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ مِنْ عَامٍ إِلَّا أَحْدَثُوا فِيهِ بِدْعَةً، وَأَمَاتُوا فِيهِ سُنَّةً، حَتَّىٰ تَحْيَا الْبِدَعُ، وَتَمُوتَ السُّنَنُ».

* **الْوَجْهُ الْخَامِسُ مِنْ وُجُوهِ شُؤْمِ الْبِدْعَةِ هُوَ: أَنَّ الِابْتِدَاعَ فِي الدِّينِ يُفَرِّقُ الْأُمَّةَ، وَيُمَزِّقُ وَحْدَتَهَا، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

* **مِنْ وُجُوهِ شُؤْمِ الْبِدَعِ: أَنَّ صَاحِبَ الْبِدْعَةِ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَزْدَادُ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا، وَلَا يَرِدُ الْحَوْضَ، وَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ يُنْزَعُ مِنْهُ التَّوْفِيقُ، وَيُوكَلُ إِلَىٰ نَفْسِهِ.**

* **مِنْ وُجُوهِ شُؤْمِ الْبِدَعِ: أَنَّ الْمُبْتَدِعَ يُلْقَىٰ عَلَيْهِ الذُّلُّ فِي الدُّنْيَا، وَالْغَضَبُ مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ-،** قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠).

(٢) أخرجه ابن وضاح في «البدع» (٩٥) (٩٦)، وابن بطة في «الإبانة (١١) (٢٢٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

*** مِنْ وُجُوهِ شُؤْمِ الْبِدَعِ: أَنَّ الْمُبْتَدِعَ يُخَافُ عَلَيْهِ سُوءُ الْخَاتِمَةِ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-**؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْبِدْعَةِ مُرْتَكِبٌ إِثْمًا، وَعَاصٍ للهِ حَتْمًا، وَمَنْ مَاتَ مُصِرًّا عَلَىٰ الْمَعْصِيَةِ يُخَافُ عَلَيْهِ.

فَتِلْكَ هِيَ بَعْضُ أَلْوَانِ الشُّؤْمِ، وَالْمَعَانِي الْمَذْمُومَةِ، وَالْأَوْصَافِ الْمَحْذُورَةِ الَّتِي تَكْشِفُ الْبِدَعَ، وَتَشْمَلُ أَصْحَابَهَا.(*).

وَمِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ نَصِيبٌ مِنَ الْخَسَارَةِ: الْمَعْصِيَةُ؛ فَـ«الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ، وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ الْحَاضِرَةَ، وَتَقْطَعُ النِّعَمَ الْوَاصِلَةَ، فَتُزِيلُ الْحَاصِلَ، وَتَمْنَعُ الْوَاصِلَ، فَإِنَّ نِعَمَ اللهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً، سَبَبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الْجَالِبَةَ لَهَا طَاعَتَهُ، وَآفَاتِهَا الْمَانِعَةَ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ، فَإِذَا أَرَادَ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ أَلْهَمَهُ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ خَذَلَهُ حَتَّىٰ عَصَاهُ بِهَا.

وَمِنَ الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهَدَةً فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ أُزِيلَتْ نِعَمُ اللهِ عَنْهُمْ بِمَعَاصِيهِ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ، كَأَنَّهُ مُسْتَثْنًىٰ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، أَوْ مَخْصُوصٌ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ، وَكَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَىٰ النَّاسِ لَا عَلَيْهِ، وَوَاصِلٌ إِلَىٰ الْخَلْقِ لَا إِلَيْهِ، فَأَيُّ جَهْلٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيُّ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ كِتَابِ: «شَرْحُ أُصُولِ السُّنَّةِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ» (ص: ١٥٦-٢١٠).

ظُلْمٍ لِلنَّفْسِ فَوْقَ هَذَا؟ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ»(١).

«إِنَّ الذُّنُوبَ تُنْسِي الْعَبْدَ حَظَّهُ مِنَ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَتَشْغَلُهُ بِالتِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ، وَكَفَىٰ بِذَلِكَ عُقُوبَةً، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ»(٢).(*).

(١) «الداء والدواء» (ص: ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) «الداء والدواء» (ص: ٢٤٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ وَفِقْهُ الْقُلُوبِ» - الْجُمُعَةُ ١٥ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٧هـ| ٢٧-١١-٢٠١٥م.

أَسْبَابُ خَسَارَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

* **إِنَّ الْكُفْرَ بِاللهِ -تَعَالَى- أَعْظَمُ أَسْبَابِ الْخَسَارَةِ؛ لِأَنَّهُ يُوجِبُ خَسَارَةً أَبَدِيَّةً، وَيَجْعَلُ صَاحِبَهُ مِنَ الْخَاسِرِينَ، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

وَنُؤَكِّدُ بِشِدَّةٍ أَنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَأُوحِيَ إِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ؛ قَائِلِينَ لِكُلِّ رَسُولٍ وَنَبِيٍّ: نُقْسِمُ لَكَ! لَئِنْ أَشْرَكْتَ بِاللهِ غَيْرَهُ لَيَبْطُلَنَّ عَمَلُكَ الصَّالِحُ الَّذِي عَمِلْتَهُ قَبْلَ الشِّرْكِ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الْخَاسِرِينَ؛ وَهَذَا خِطَابٌ بِصَرِيحِ الْقَوْلِ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ تَعْرِيضٌ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ أَنْ يَحْذَرُوا مِنَ الشِّرْكِ؛ لِئَلَّا تَحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ وَيَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ.

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ عِنْدَ رَبِّهِ الْحِمَايَةَ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ، وَيَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ إِذَا أَشْرَكَ، وَهُوَ ذُو الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالِاصْطِفَاءِ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ سَائِرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ مِثْلُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ؟!(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الزمر: ٦٥].

وَكُلَّمَا أَوْغَلُوا فِي الْكُفْرِ بِاللهِ -تَعَالَى- ازْدَادُوا خَسَارًا، ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: ٣٩].

وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا بُغْضًا وَشَقَاءً وَعَذَابًا نَفْسِيًّا، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا خُسْرَانًا عَظِيمًا، يَخْسَرُونَ سَعَادَتَهُمْ، وَرَاحَتَهُمُ النَّفْسِيَّةُ فِي الدُّنْيَا، وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الدِّينِ، وَمَا يَلْحَقُ بِهِمْ مِنْ خَسَارَةٍ أَبَدِيَّةٍ.(*).

وَمِنَ الْكُفْرِ الْمُسْتَوْجِبِ لِلْخَسَارَةِ الْكُفْرُ بِآيَاتِ اللهِ -تَعَالَى- الْكَوْنِيَّةِ أَوِ الشَّرْعِيَّةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر: ٦٣].

«﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: الدَّالَّةِ عَلَىٰ الْحَقِّ الْيَقِينِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: خَسِرُوا مَا بِهِ تَصْلُحُ الْقُلُوبُ مِنَ التَّأَلُّهِ وَالْإِخْلَاصِ للهِ، وَمَا بِهِ تَصْلُحُ الْأَلْسُنُ مِنْ إِشْغَالِهَا بِذِكْرِ اللهِ، وَمَا تَصْلُحُ بِهِ الْجَوَارِحُ مِنْ طَاعَةِ اللهِ، وَتُعَوَّضُوا عَنْ ذَلِكَ كُلَّ مُفْسِدٍ لِلْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ، وَخَسِرُوا جَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَتَعَوَّضُوا عَنْهَا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ»(٢).

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [يونس: ٩٥].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [فاطر: ٣٩].

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٥٧).

«**حَاصِلُ هَذَا**: أَنَّ اللهَ نَهَىٰ عَنْ شَيْئَيْنِ: الشَّكُّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَالِامْتِرَاءُ فِيهِ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ: التَّكْذِيبُ بِهِ، وَهُوَ آيَاتُ اللهِ الْبَيِّنَاتُ الَّتِي لَا تَقْبَلُ التَّكْذِيبَ بِوَجْهٍ، وَرَتَّبَ عَلَىٰ هَذَا الْخَسَارَ، وَهُوَ عَدَمُ الرِّبْحِ أَصْلًا، وَذَلِكَ بِفَوَاتِ الثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحُصُولِ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ، فَيَكُونُ أَمْرًا بِالتَّصْدِيقِ التَّامِّ بِالْقُرْآنِ، وَطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ عِلْمًا وَعَمَلًا.

فَبِذَلِكَ يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّابِحِينَ الَّذِينَ أَدْرَكُوا أَجَلَّ الْمَطَالِبِ، وَأَفْضَلَ الرَّغَائِبِ، وَأَتَمَّ الْمَنَاقِبِ، وَانْتَفَىٰ عَنْهُمُ الْخَسَارُ»(١).

وَقَالَ -تَعَالَىٰ- عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: ١٢١].

* **وَمِنْ أَسْبَابِ الْخَسَارَةِ الْأَبَدِيَّةِ: التَّكْذِيبُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس: ٤٥].

قَدْ خَسِرَ مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ الْبَاقِيَةَ بِدُنْيَاهُ الْفَانِيَةِ، وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُهْتَدِينَ إِلَىٰ مَا نُصْلِحُهُمْ بِهِ، وَمَا يُنَجِّيهِمْ مِنْ هَذَا الْخَسَارِ.(*).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٤٢٩-٤٣٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [يونس: ٤٥].

*** طَاعَةُ الشَّيْطَانِ هِيَ أَصْلُ الْخُسْرَانِ وَأَسَاسُ الْإِفْلَاسِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩﴾ [النساء: ١١٩].

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ نَاصِرًا لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ يُطِيعُهُ فِيمَا يَأْمُرُهُ بِهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا ظَاهِرًا وَاضِحًا؛ لِأَنَّ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ تُوصِلُهُ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ وَهِيَ غَايَةُ الْخُسْرَانِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾ [المجادلة: ١٩].

قَائِدُهُمْ وَمُوَجِّهُهُمْ وَوَاضِعُ بَرَامِجِهِمْ، تَلَاقَوْا عَلَىٰ مَبَادِئَ، وَعَقَائِدَ، وَأَهْوَاءٍ، وَأَعْمَالٍ جَرَّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ سُلُوكِهَا.

تَنَبَّهُوا وَتَحَقَّقُوا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِذْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَدَفَعُوا بِهَا إِلَىٰ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْخَالِدِ فِي دَارِ الْعَذَابِ.(*/٢).

*** وَمِنْ أَسْبَابِ الْخُسْرَانِ وَالهَلَاكِ: قُرَنَاءُ السُوءِ واتِّبَاعُهُمْ؛ لأَنَّهُمْ زَيَّنُوا لَهُمْ كُلَّ بَاطِلٍ، فَسَوفَ يَكُونُونَ منْ الخَاسِرِينَ؛ فَمَا بَالُ بَعْضِ النَّاسِ يَنْسَاقُونَ خَلْفَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ والعَابِثِينَ مَعَ يَقِينِهِمْ بِخُسْرَانِهِمْ، وَقَدْ حَذَّرَنَا اللهُ مِنْ ذَلِكَ: قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [النساء: ١١٩].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [المجادلة: ١٩].

فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ! إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمُنَافِقِينَ فِيمَا يَأْمُرُونكُمْ بِهِ وَيَنْهَوْنكُمْ عَنْهُ يُرْجِعُوكُمْ إِلَىٰ الْكُفْرِ بِاللهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِهِ، فَتَعُودُوا مَغْبُونِينَ فِي الدُّنْيَا بِطَاعَةِ الْكُفَّارِ وَالتَّذَلُّلِ لَهُمْ، مَغْبُونِينَ فِي الْآخِرَةِ بِدُخُولِ النَّارِ، وَحِرْمَانِ دَارِ الْقَرَارِ، وَهَذَا هُوَ مَطْلَبُ الْكَافِرِينَ أَنْ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ وَيُرْجِعُوكُمْ إِلَىٰ مَوْضِعِ الذِّلَّةِ.

فَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فَقَدْ حَقَّقْتُمْ لَهُمْ مَقْصِدَهُمْ، وَأَصْبَحَ زِمَامُ أُمُورِكُمْ بِأَيْدِيهِمْ.(*).

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ مُخَالَطَةِ الْفَاسِدِينَ الضَّالِّينَ؛ «فَإِنَّ كَثْرَةَ الْخُلْطَةِ تُورِثُ الْقَلْبَ امْتِلَاءً مِنْ دُخَانِ أَنْفَاسِ بَنِي آدَمَ حَتَّىٰ يَسْوَدَّ، وَيُوجِبَ لَهُ تَشَتُّتًا وَتَفَرُّقًا، وَهَمًّا وَغَمًّا، وَضَعْفًا، وَحَمْلًا لِمَا يَعْجِزُ عَنْ حَمْلِهِ؛ مِنْ مَئُونَةِ قُرَنَاءِ السُّوءِ، مَعَ إِضَاعَةِ مَصَالِحِهِ، وَالِاشْتِغَالِ عَنْهَا بِهِمْ وَبِأُمُورِهِمْ، وَتَقْسِيمِ فِكْرِهِ فِي أَوْدِيَةِ مَطَالِبِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ، فَمَاذَا يَبْقَىٰ مِنْهُ لِلَّهِ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ؟!!

هَذَا، وَكَمْ جَلَبَتْ خُلْطَةُ النَّاسِ مِنْ نِقْمَةٍ، وَدَفَعَتْ مِنْ نِعْمَةٍ، وَأَنْزَلَتْ مِنْ مِحْنَةٍ، وَعَطَّلَتْ مِنْ مِنْحَةٍ، وَأَحَلَّتْ مِنْ رَزِيَّةٍ، وَأَوْقَعَتْ فِي بَلِيَّةٍ؟!! وَهَلْ آفَةُ النَّاسِ إِلَّا النَّاسُ؟!!

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [آل عمران: ١٤٩].

وَهَلْ كَانَ عَلَىٰ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْوَفَاةِ أَضَرَّ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوءِ؟!!

لَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّىٰ حَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تُوجِبُ لَهُ سَعَادَةَ الْأَبَدِ -وَالنَّبِيُّ عِنْدَ رَأْسِهِ يَقُولُ: «**يَا عَمَّاهُ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.. هِيَ كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**».

فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ الْإِنْسِ: أَتَدَعُ دِينَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَتَدْخُلُ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ؟!!

فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: أَنَّهُ عَلَىٰ دِينِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ فَدَخَلَ النَّارَ»(١).

فَاحْذَرْ أَهْلَ زَمَانِكَ، وَأَقْلِلْ مِنَ الْمُخَالَطَةِ عَلَىٰ قَدْرِ وُسْعِكَ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَقٌّ تُؤَدِّيهِ؛ مِنْ رَحِمٍ تَصِلُهُ أَوْ بِرٍّ تَذْهَبُ بِهِ إِلَىٰ مُسْتَحِقِّيهِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَالْزَمْ قَعْرَ بَيْتِكَ، وَأَقْبِلْ عَلَىٰ رَبِّكَ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ نَبِيُّكَ ﷺ، وَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ عَامَّتِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَضَرِّ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرٍ عَلَيْكَ-.

---

(١) أخرج البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حَزَن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أخبر: «أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، دَخَلَ عليه النَّبيُّ ﷺ وعِنْدَهُ أبو جَهْلٍ، فَقَالَ: «**أيْ عَمِّ! قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لكَ بهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَ أبو جَهْلٍ وعَبْدُ اللهِ بنُ أَبِي أُمَيَّةَ: «يا أَبَا طَالِبٍ! تَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ!»، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حتَّىٰ قَالَ آخِرَ شَيءٍ كَلَّمَهُمْ بهِ: «علَىٰ مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ»، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ ما لَمْ أُنْهَ عنه**، فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، ونَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]».

وَهَذِهِ الْخُلْطَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَىٰ نَوْعِ مَوَدَّةٍ فِي الدُّنْيَا، وَقَضَاءِ وَطَرِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ؛ هَذِهِ الْخُلْطَةُ تَنْقَلِبُ إِذَا حَقَّتِ الْحَقَائِقُ عَدَاوَةً، وَيَعَضُّ الْمُخَالِطُ عَلَيْهَا يَدَيْهِ نَدَمًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وَقَالَ خَلِيلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]»(١).(*).

* **وَمِنْ أَسْبَابِ الْخُسْرَانِ: الِاشْتِغَالُ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ عَنِ الْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

«يَأْمُرُ -تَعَالَىٰ- عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِهِ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الرِّبْحَ وَالْفَلَاحَ، وَالْخَيْرَاتِ الْكَثِيرَةَ، وَيَنْهَاهُمْ أَنْ تَشْغَلَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ عَنْ ذِكْرِهِ؛

---

(١) «مدارج السالكين»: (١/ ٤٥٢-٤٥٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةِ: «عَرَفْتَ فَالْزَمْ!» - ٢٨ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٣هـ| ٢٠-٤-٢٠١٢م.

فَإِنَّ مَحَبَّةَ الْمَالِ وَالْأَوْلَادِ مَجْبُولَةٌ عَلَيْهَا أَكْثَرُ النُّفُوسِ، فَتُقَدِّمُهَا عَلَىٰ مَحَبَّةِ اللهِ، وَفِي ذَلِكَ الْخَسَارَةُ الْعَظِيمَةُ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: يُلْهِهِ مَالُهُ وَوَلَدُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لِلسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ؛ لِأَنَّهُمْ آثَرُوا مَا يَفْنَىٰ عَلَىٰ مَا يَبْقَىٰ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١١-١٣].

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ، لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، وَلَمْ تُخَالِطْهُ بَشَاشَتُهُ، بَلْ دَخَلَ فِيهِ إِمَّا خَوْفًا وَإِمَّا عَادَةً عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يَثْبُتُ عِنْدَ الْمِحَنِ، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أَيْ: إِنِ اسْتَمَرَّ رِزْقُهُ رَغَدًا، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مِنَ الْمَكَارِهِ شَيْءٌ؛ اطْمَأَنَّ بِذَلِكَ الْخَيْرِ، لَا بِإِيمَانِهِ، فَهَذَا رُبَّمَا أَنَّ اللهَ يُعَافِيهِ، وَلَا يُقَيِّضُ لَهُ مِنَ الْفِتَنِ مَا يَنْصَرِفُ بِهِ عَنْ دِينِه.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾: مِنْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ أَوْ زَوَالِ مَحْبُوبٍ ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أَيِ: ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾: أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُ بِالرِّدَّةِ مَا أَمَّلَهُ، الَّذِي جَعَلَ الرِّدَّةَ رَأْسًا لِمَالِهِ، وَعِوَضًا عَمَّا يَظُنُّ إِدْرَاكَهُ،

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٢٠).

فَخَابَ سَعْيُهُ، وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ إِلَّا مَا قُسِمَ لَهُ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَظَاهِرٌ؛ حُرِمَ الْجَنَّةَ الَّتِي عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَاسْتَحَقَّ النَّارَ، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ أَيِ: الْوَاضِحُ الْبَيِّنُ.

﴿يَدْعُواْ﴾: هَذَا الرَّاجِعُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾: وَهَذَا صِفَةُ كُلِّ مَدْعُوٍّ وَمَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾: الَّذِي قَدْ بَلَغَ فِي الْبُعْدِ إِلَىٰ حَدِّ النِّهَايَةِ، حَيْثُ أَعْرَضَ عَنْ عِبَادَةِ النَّافِعِ الضَّارِّ الْغَنِيِّ الْمُغْنِي، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ عِبَادَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ أَوْ دُونِهِ، لَيْسَ بِيَدِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ إِلَىٰ حُصُولِ ضِدِّ مَقْصُودِهِ أَقْرَبُ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾: فَإِنَّ ضَرَرَهُ فِي الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعْلُومٌ، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أَيْ: هَذَا الْمَعْبُودُ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ١٣﴾ أَيِ: الْقَرِينُ الْمُلَازِمُ عَلَىٰ صُحْبَتِهِ؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَوْلَىٰ وَالْعَشِيرِ حُصُولُ النَّفْعِ وَدَفْعُ الضَّرَرِ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ مَلُومٌ»(١).

* **مِنْ أَسْبَابِ الْخَسَارَةِ فِي الْآخِرَةِ: تَضْيِيعُ الصَّلَاةِ، قَالَ** ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ**»(٢). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٢٤-٦٢٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٦٤)، والترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (٤٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

***مِنْ أَسْبَابِ الْخَسَارَةِ: الْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩].

أَفَأَمِنُوا تَدْبِيرَ اللهِ الْخَفِيَّ بِإِمْهَالِهِ إِيَّاهُمْ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَطَاءَاتِ النِّعَمِ الْوَفِيرَةِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ مَعَ كُفْرِهِمُ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ إِلَّا مَنْ خَسِرَ فِي أُخْرَاهُ وَهَلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ.(*).

*** وَالْعِصْيَانُ طَرِيقُ الْخَسَارَةِ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- مُبَيِّنًا مَصِيرَ أَهْلِ الْقُرَىٰ مِنَ الْعُصَاةِ لِأَمْرِ اللهِ وَرُسُلِهِ:** ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ٩﴾ [الطلاق: ٨-٩].

وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ مُجَمَّعَاتٍ سَكَنِيَّةٍ عَصَوْا وَطَغَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَأَمْرِ رُسُلِهِمْ؛ فَحَاسَبْنَاهُمْ حِسَابًا شَدِيدًا بِالتَّدْقِيقِ وَالِاسْتِقْصَاءِ لِكُلِّ ذُنُوبِهِمْ؛ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُ شَيْئًا، وَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا مُنْكَرًا فَظِيعًا، فَتَجَرَّعُوا سُوءَ مَآلِ أَمْرِهِمْ، وَجَزَاءَ كُفْرِهِمْ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ خُسْرَانًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ بَاعُوا نَعِيمَ الْآخِرَةِ بِخَسِيسٍ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٍ.(*/٢).

*** وَهُنَاكَ أَعْمَالٌ وُصِفَ مَرْتَكِبُوهَا بِالْخُسْرَانِ؛ لِشَنَاعَتِهَا، وَلِيَحْذَرَ النَّاسُ مِنْهَا، كَسَفْكِ الدَّمِ الْحَرَامِ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأعراف: ٩٩].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الطلاق: ٨-٩].

مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة: ٣٠].

فَزَيَّنَتْ لَهُ نَفْسُهُ الشِّرِّيرَةُ قَتْلَ أَخِيهِ بَعْدَ مَعْرَكَةٍ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَبَيْنَ الْإِقْدَامِ عَلَىٰ الْجَرِيمَةِ وَالْإِحْجَامِ عَنْهَا، حَتَّىٰ انْتَصَرَتْ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، فَقَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلَ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ؛ خَسِرَ نَفْسَهُ فَأَوْرَدَهَا مَوَارِدَ الْهَلَاكِ، وَخَسِرَ أَخَاهُ فَفَقَدَ النَّاصِرَ وَالْمُعِينَ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ فَمَا تَهْنَأُ لِلْقَاتِلِ حَيَاةٌ، وَخَسِرَ آخِرَتَهُ فَبَاءَ بِإِثْمِهِ الْأَوَّلِ وَالْأَخِيرِ، فَكَانَ قَابِيلُ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، وَلَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ نَصِيبٌ مِنْ ذَنْبِهَا، نَصِيبُ إِثْمِ إِهْرَاقِ دَمِهَا ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ كِفْلٌ مِنْهَا، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ.(*).

*** وَكَذَلِكَ نَقْضُ الْعَهْدِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَالْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ خُسْرَانٌ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾** [البقرة: ٢٧].

وَأَمَّا الْأَشْقِيَاءُ الَّذِينَ عَطَّلُوا عُقُولَهُمْ عَنِ التَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ، وَلَمْ تَعْقِلْهُمْ عُقُولُهُمْ عَنِ الْفَسَادِ وَالشَّرِّ، هُمْ يَسْتَجْمِعُونَ ثَلَاثَةَ أُصُولٍ مِنْ خِصَالِ السُّوءِ:

الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: الَّذِينَ يُخَالِفُونَ أَوَامِرَ اللهِ، وَلَا يَفُونَ بِعَهْدِهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَوْثَقُوهُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [المائدة: ٣٠].

وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي مِنْ خِصَالِ السُّوءِ: فَأَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ مِنْ صِلَةِ الْأَرْحَامِ وَغَيْرِهَا.

وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ: يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْكُفْرِ وَنَشْرِ الْفُسُوقِ وَالْفُجُورِ وَأَنْوَاعِ الْفَوَاحِشِ، وَبِالْمُجَاهَرَةِ الْوَقِحَةِ لِمَعْصِيَةِ اللهِ، وَبِالْإِضْرَارِ لِلْآخَرِينَ وَبِالْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ.

أُولَئِكَ الْمُسْتَجْمِعُونَ لِهَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ الْقَبِيحَةِ.. أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ﷻ، وَلَهُمُ الْعَاقِبَةُ السَّيِّئَةُ، وَهِيَ النَّارُ دَارُ الْعَذَابِ الَّتِي يَنْقَلِبُونَ إِلَيْهَا.(*).

* **وَكَذَلِكَ سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ -تَعَالَى- طَرِيقُ الْخُسْرَانِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣].

وَذَلِكَ الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ الْبَاطِلُ الَّذِي ظَنَنْتُمُوهُ بِرَبِّكُمْ: أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ، هَذَا الظَّنُّ أَسْقَطَكُمْ فِي أَوْدِيَةِ الْآثَامِ وَالْجَرَائِمِ، فَأَصْبَحْتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ كُلَّهَا، وَقَذَفُوا بِهَا إِلَىٰ عَذَابٍ أَبَدِيٍّ فِي النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.(*/٢).

* **مَنْعُ الزَّكَاةِ وَحَقِّ اللهِ -تَعَالَى- فِي الْمَالِ بَابٌ إِلَى الْخُسْرَانِ؛** فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «جِئْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قَالَ: فَرَآنِي مُقْبِلًا، فَقَالَ: «**هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [البقرة: ٢٧].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [البقرة: ٢٧].

قَالَ: فَقُلْتُ: «مَا لِي لَعَلَّهُ أُنْزِلَ فِيَّ شَيْءٌ».

قَالَ: قُلْتُ: «مَنْ هُمْ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟!».

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هُمُ الْأَكْثَرُونَ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**»، فَحَثَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَمُوتُ رَجُلٌ فَيَدَعُ إِبِلًا أَوْ بَقَرًا لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا إِلَّا جَاءَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنَهُ تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا، كُلَّمَا نَفِدَتْ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَ النَّاسِ**»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٠)، ومسلم (٩٩٠).

سُبُلُ النَّجَاةِ مِنْ طَرِيقِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

إِنَّ السَّلَامَةَ مِنَ الْخُسْرَانِ فِي الْآخِرَةِ، وَالنَّجَاةَ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا لَا يَكُونُ إِلَّا بِاجْتِنَابِ أَسْبَابِ ذَلِكَ.

* **وَمِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ النَّجَاةِ مِنْ طَرِيقِ الْخُسْرَانِ: الْإِيمَانُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِيهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾** [العصر: ١-٣].

«أَقْسَمَ -تَعَالَىٰ- بِالْعَصْرِ، الَّذِي هُوَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، مَحَلُّ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالِهِمْ؛ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ خَاسِرٌ، وَالْخَاسِرُ ضِدُّ الرَّابِحِ.

وَالْخَسَارُ مَرَاتِبُ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَفَاوِتَةٌ:

قَدْ يَكُونُ خَسَارًا مُطْلَقًا، كَحَالِ مَنْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَفَاتَهُ النَّعِيمُ، وَاسْتَحَقَّ الْجَحِيمَ.

وَقَدْ يَكُونُ خَاسِرًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ دُونَ بَعْضٍ، وَلِهَذَا عَمَّمَ اللهُ الْخَسَارَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، إِلَّا مَنِ اتَّصَفَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ:

- **الْإِيمَانُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ**، وَلَا يَكُونُ الْإِيمَانُ بِدُونِ الْعِلْمِ، فَهُوَ فَرْعٌ عَنْهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهِ.

- **وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ**، وَهَذَا شَامِلٌ لِأَفْعَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الْمُتَعَلِّقَةِ بِحُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ.

- **وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ**، الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، أَيْ: يُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِذَلِكَ، وَيَحُثُّهُ عَلَيْهِ، وَيُرَغِّبُهُ فِيهِ.

- **وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ**؛ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَعَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَعَلَىٰ أَقْدَارِ اللهِ الْمُؤْلِمَةِ.

فَبِالْأَمْرَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ يُكَمِّلُ الْعَبْدُ نَفْسَهُ، وَبِالْأَمْرَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ يُكَمِّلُ غَيْرَهُ، وَبِتَكْمِيلِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ يَكُونُ الْعَبْدُ قَدْ سَلِمَ مِنَ الْخَسَارِ، وَفَازَ بِالرِّبْحِ الْعَظِيمِ»(١).

*** وَمِنْ أَعْظَمِ سُبُلِ النَّجَاةِ مِنْ طَرِيقِ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا: الْإِخْلَاصُ وَالِاتِّبَاعُ.**

إِنَّ مِيزَانَ الِاهْتِدَاءِ وَمِيزَانَ الْعَدْلِ: تَجْرِيدُ الْإِخْلَاصِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَتَجْرِيدُ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَوْ أَنَّكَ تَأَمَّلْتَ لَوَجَدْتَ أَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِكَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ».

وَإِذَنْ؛ فَهُوَ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ، وَهُوَ السَّبِيلُ الْمُوَصِّلُ إِلَىٰ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ؛

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١١٠٣).

لِيَسْتَقِيمَ عَلَيْهِ الْمَرْءُ بِقَدَمَيْهِ مِنْ غَيْرِ مَا عِوَجٍ وَلَا أَمْتٍ وَلَا الْتِوَاءٍ وَلَا الْتِفَاتٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ الْمُسْتَقَرُّ الْجَنَّةَ -بِفَضْلِ اللهِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ-.

تَجْرِيدُ الْإِخْلَاصِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَيُوَحِّدُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ؛ إِذْ هُوَ الْخَلَّاقُ، وَهُوَ الرَّزَّاقُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْأَمْرِ، فَلَا خَالِقَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَازِقَ إِلَّا هُوَ، وَلَا مُدَبِّرَ لِلْأَمْرِ إِلَّا هُوَ.

وَيُوَحِّدُ الْإِنْسَانُ بِإِخْلَاصِ الْقَصْدَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي عِبَادَتِهِ، حَتَّىٰ تَكُونَ خَالِصَةً للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا شَيْءٌ، فَيَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِذَا مَا أَحَبَّ أَحَبَّ للهِ، وَإِذَا مَا أَبْغَضَ أَبْغَضَ للهِ، وَإِذَا مَا أَعْطَىٰ أَعْطَىٰ للهِ، وَإِذَا مَا مَنَعَ مَنَعَ للهِ، وَإِذَا مَا قَامَ أَوْ قَعَدَ فَلِلهِ وَبِاللهِ، وَإِذَا مَا نَذَرَ أَوْ ذَبَحَ أَوْ حَلَفَ فَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا للهِ وَبِاللهِ، فَيَكُونُ الْعَبْدُ كُلُّهُ للهِ خَالِصًا، فَلَا يَصْرِفُ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ.

وَيُخْلِصُ الْإِنْسَانُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ إِذْ هُوَ صَاحِبُ صِفَاتِ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ وَالْجَلَالِ، لَا يَنْفَرِدُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ، لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ وَالْجَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَمُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ.

إِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ بِتَجْرِيدِهِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.. تَجْرِيدُ الْإِخْلَاصِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهَذَا وَحْدَهُ لَا يَكْفِي إِلَّا بِضَمِيمَةِ كِفَّةِ مِيزَانِ الْعَدْلِ الْأُخْرَىٰ؛ **بِتَجْرِيدِ الْمُتَابَعَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ،** فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ طَائِعًا طَيِّعًا مُتَلَمِّسًا سَبِيلَ الْهُدَىٰ فِيمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّ الْهُدَىٰ ﷺ.

وَإِذَنْ؛ لَا تَخْدَعُنَا شِعَارَاتٌ وَلَا لَافِتَاتٌ عِنْدَ الْعَرْضِ عَلَىٰ هَذَا الْمِيزَانِ؛ لِأَنَّنَا لَوْ تَوَقَّفْنَا عِنْدَ حُدُودِ دَعْوَىٰ الْإِخْلَاصِ وَحْدَهَا مِنْ غَيْرِ مَا فَحْصٍ وَبَحْثٍ وَتَنْقِيبٍ وَتَنْقِيرٍ وَتَفْتِيشٍ وَتَلَمُّسٍ لِخَبِيئَةِ الْأَمْرِ وَظَاهِرِهِ فِي اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ.. إِذَا تَوَقَّفْنَا عِنْدَ حُدُودِ دَعْوَىٰ الْإِخْلَاصِ مِنْ غَيْرِ مَا تَجْرِيدٍ لِمُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَعْنَا فِي الزَّيْغِ لَا مَحَالَةَ -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ-.(*).

إِنَّ مَبْنَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ عَلَىٰ أَصْلَيْنِ:

*** أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ.**

*** وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.**

فَالْأَوَّلُ: تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ لِلْعَزِيزِ الْمَجِيدِ.

وَالثَّانِي: تَجْرِيدُ الْمُتَابَعَةِ لِلْمَعْصُومِ ﷺ.

وَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ حَتَّىٰ يَتَحَقَّقَ فِيهِ هَذَانِ الْأَصْلَانِ، وَيَتَوَفَّرَ فِيهِ هَذَانِ الشَّرْطَانِ: «أَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ»، تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ للهِ الْعَزِيزِ الْمَجِيدِ، وَتَجْرِيدُ الْمُتَابَعَةِ لِلْمَعْصُومِ ﷺ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «تَجْرِيدُ الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ» - ٢/ ٥/ ٢٠٠٥م.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أَيْ: ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ الصَّالِحَ، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرْعِ اللهِ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلهِ، صَوَابًا عَلَىٰ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ».

رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ، وَالْأَصْلَانِ وَالشَّرْطَانِ اللَّذَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَفَّرَا فِي الْعَمَلِ حَتَّىٰ يَكُونَ هَذَا الْعَمَلُ مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنْ يَكُونَ خَالِصًا، وَأَنْ يَكُونَ صَوَابًا، فَأَمَّا الْخَالِصُ فَأَنْ يَكُونَ لِلهِ، وَأَمَّا الصَّوَابُ فَأَنْ يَكُونَ عَلَىٰ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فَهَذَا هُوَ الْعَمَلُ الصَّوَابُ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ هَذَا هُوَ الْعَمَلُ الْخَالِصُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَجَمَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ شَرْطَيْ قَبُولِ الْعَمَلِ وَهُمَا: الْإِخْلَاصُ وَالْمُتَابَعَةُ.

فَأَمَّا الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: وَهُوَ الْإِخْلَاصُ -إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

فَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَأُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ.

لَا يَقْبَلُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَأُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٠٥).

فَمِنَ الْكِتَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧].

وَمِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**». وَهَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالتَّمْكِينِ فِي الْبِلَادِ، وَالنَّصْرِ وَالرِّفْعَةِ فِي الدِّينِ، وَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ**». وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»(٢).

«وَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا؛ فَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ».

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (رقم ١ و٥٤) ومواضع، ومسلم في «صحيحه» (رقم ١٩٠٧)، من حديث: عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» وابنه عبد الله في «زوائده» (٥/ ١٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (رقم ٤٠٥/ الإحسان)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣١١، رقم ٧٨٦٢)، من حديث: أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ رقم ٢٣) و(٢/ رقم ١٣٣٢).

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**»(١). وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا -مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللهِ- يَلْتَمِسُ الأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ؟

فَقَالَ النَّبي ﷺ: «**لَا شَيْءَ لَهُ**».

فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي كُلِّ مَرَّةٍ «**لَا شَيْءَ لَهُ**».

ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**». وَهَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ(٢).

فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ، وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ الشَّرِيفَةُ قَاضِيَةٌ بِأَنَّ الْعَمَلَ لَا يُقْبَلُ حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا للهِ.

وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي: وَهُوَ تَجْرِيدُ مُتَابَعَةِ الْمَعْصُومِ ﷺ.

فَقَدْ دَلَّتْ الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ عَلَىٰ وُجُوبِ طَاعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمُتَابَعَتِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي في «المجتبىٰ» (٦/ ٢٥، رقم ٣١٤٠)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١/ رقم ٥٢) و«صحيح الترغيب والترهيب» (١/ رقم ٨) و(٢/ رقم ١٣٣١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وَقَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

فَهَذِهِ الْآيَاتُ دَالَّةٌ عَلَىٰ وُجُوبِ طَاعَةِ سَيِّدِ الْكَائِنَاتِ ﷺ.

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ فَكَثِيرَةٌ جِدًّا مِنْهَا:

حَدِيثُ الْبُخَارِيِّ(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، إِلَّا مَنْ أَبَىٰ**» -«**أَبَىٰ**» يَعْنِي: امْتَنَعَ وَرَفَضَ-.

قِيلَ: وَمَنْ يَأْبَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَىٰ**».

وَمِنْهَا: حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الَّذِي أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٢)؛ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ منه فَهُوَ رَدٌّ**».

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم ٧٢٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم ٢٦٩٧)، و«صحيح مسلم» (رقم ١٧١٨/ ١٧).

يَعْنِي: فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

يَعْنِي: مَنْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ مَا لَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ، وَلَمْ يَشْهَدْ لَهُ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ دِينِ اللهِ فَهُوَ مَرْدُودٌ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ(١): «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» يَعْنِي: فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ قَاطِعَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الْعَمَلَ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَوَابًا مُوَافِقًا لِشَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ.

فَعِنْدَنَا أَصْلَانِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْعَمَلَ، وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ الشَّرْطَانِ: أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ الْأَكْرَمُ ﷺ.

الْمُتَابَعَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَيْفَ تَتَحَقَّقُ؟

كَيْفَ تَتَحَقَّقُ مُوَافَقَةُ الشَّرِيعَةِ وَمُتَابَعَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْمُتَابَعَةَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِسِتَّةِ أَوْصَافٍ، الْمُتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِسِتَّةِ أَوْصَافٍ، فَهَذِهِ الْعِبَادَةُ الَّتِي تَكُونُ خَالِصَةً للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَسْتَوْفِي الشَّرْطَ الْأَوَّلَ لَا تُقْبَلُ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَتَّىٰ تَكُونَ عَلَىٰ قَدَمَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْعِبَادَةُ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي: سَبَبِهَا، وَجِنْسِهَا، وَقَدْرِهَا، وَكَيْفِيَّتِهَا، وَزَمَانِهَا، وَمَكَانِهَا، فَهَذِهِ سِتَّةُ أَوْصَافٍ،

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧١٨/ ١٨).

لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَفَّرَ وَأَنْ تَتَحَقَّقَ، وَأَنْ يَتَّصِفَ بِهَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْخَالِصُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حَتَّىٰ يَكُونَ هَذَا الْعَمَلُ مُتَوَفِّرًا فِيهِ شَرْطُ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

الْأَوَّلُ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ: أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ فِي سَبَبِهَا:

فَأَيُّ إِنْسَانٍ يَتَعَبَّدُ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادَةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَىٰ سَبَبٍ لَمْ يَثْبُتْ بِالشَّرْعِ فَهُوَ عِبَادَةٌ مَرْدُودَةٌ لَيْسَ عَلَيْهَا أَمْرُ اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

وَمِثَالُ ذَلِكَ -يَعْنِي: فِي اخْتِلَالِ هَذَا الْوَصْفِ -وَهُوَ السَّبَبُ- الَّذِي لِأَجْلِهِ تَكُونُ الْعِبَادَةُ عِبَادَةً، وَتَكُونُ عَلَىٰ قَدَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.. مِثَالُ ذَلِكَ فِي اخْتِلَالِ هَذَا الْوَصْفِ: الِاحْتِفَالُ بِمَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ.

الثَّانِي مِنَ الْأَوْصَافِ: أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ فِي جِنْسِهَا:

مِثْلُ: أَنْ يُضَحِّيَ الْمُسْلِمُ بِفَرَسٍ مَثَلًا، فَإِنَّهُ لَوْ ضَحَّىٰ بِفَرَسٍ كَانَ مُخَالِفًا لِجِنْسِ مَا يُضَحَّىٰ بِهِ وَهُوَ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ، وَحِينَئِذٍ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ هَذَا وَلَا يَكُونُ عِبَادَةً عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي أَرَادَ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ فِي قَدْرِهَا:

فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا صَلَّىٰ الظُّهْرَ سِتًّا، أَوِ الْمَغْرِبَ أَرْبَعًا، فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ قَدْ أَتَىٰ بِمَا يُوَافِقُ شَرِيعَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَكُونُ هَذَا الْعَمَلُ مَرْدُودًا غَيْرَ مَقْبُولٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْتِ بِهَذَا.

وَأَمَّا الْوَصْفُ الرَّابِعُ: فَأَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ فِي كَيْفِيَّتِهَا:

فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا فَعَلَ الْعِبَادَةَ بِجِنْسِهَا وَسَبَبِهَا وَقَدْرِهَا لَكِنَّهُ خَالَفَ الشَّرْعَ فِي كَيْفِيَّتِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَصِحُّ، كَرَجُلٍ أَحْدَثَ حَدَثًا أَصْغَرَ، وَتَوَضَّأَ لَكِنَّهُ غَسَلَ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ، فَهَذَا لَا يَصِحُّ وُضُوؤُهُ؛ لِاخْتِلَالِ شَرْطِ التَّرْتِيبِ فِيهِ، وَهَذَا خَالَفَ الشَّرْعَ فِي الْكَيْفِيَّةِ.

وَمِثَالُهُ أَيْضًا أَنْ يَقُومَ مُصَلِّيًا، فَيُقَدِّمَ السُّجُودَ عَلَىٰ الرُّكُوعِ، أَوْ يَقْرَأَ التَّشَهُّدَ بَدَلَ الْفَاتِحَةِ، وَيَأْتِيَ بِالْفَاتِحَةِ بَدَلَ التَّشَهُّدِ، فَهَذَا خَالَفَ الْعِبَادَةَ فِي كَيْفِيَّتِهَا الَّتِي جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ.

وَالْخَامِسُ مِنَ الْأَوْصَافِ: أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ فِي الزَّمَانِ:

فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا صَامَ الشَّهْرَ الْوَاجِبَ صَوْمُهُ فِي شَعْبَانَ، أَوْ شَوَّالٍ، أَوْ ذَهَبَ لِلْحَجِّ فِي رَمَضَانَ، أَوْ صَلَّىٰ الظُّهْرَ قَبْلَ الزَّوَالِ، فَخَالَفَ فِي الزَّمَانِ، فَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَا يَكُونُ مَقْبُولًا عِنْدَ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ

وَكَذَلِكَ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مُوَافِقَةً لِلشَّرِيعَةِ فِي مَكَانِهَا:

فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا وَقَفَ يَوْمَ عَرَفَةَ بِمُزْدَلِفَةَ، لَمْ يَصِحَّ وُقُوفُهُ؛ لِعَدَمِ مُوَافَقَةِ الْعِبَادَةِ لِلشَّرْعِ فِي مَكَانِهَا.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أَوْصَافٍ: السَّبَبُ وَالْجِنْسُ وَالْكَمُّ وَالْكَيْفُ وَالزَّمَانُ وَالْمَكَانُ.

إِذَا اخْتَلَّ شَرْطٌ مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ فِي الْعِبَادَةِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعَبْدُ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ تَكُنِ الْعِبَادَةُ مَقْبُولَةً عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ

تُحَقِّقَ الْمُتَابَعَةَ لِلْمَعْصُومِ ﷺ أَنْ تَأْتِيَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ عَلَىٰ النَّحْوِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

فَهَذَا كُلُّهُ أَصْلُ الْمُتَابَعَةِ، وَأَمَّا الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ للهِ الْعَزِيزِ الْمَجِيدِ بِإِخْلَاصِ الْعِلْمِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ تَأْتِيَ بِالْعَمَلِ خَالِصًا للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا رِيَاءَ فِيهِ وَلَا سُمْعَةَ، وَلَا اخْتِلَالَ فِيهِ لِشَرْطِ الْإِخْلَاصِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ خَالِصًا، وَأَنْ يَكُونَ صَوَابًا، الْخَالِصُ للهِ، وَالصَّوَابُ عَلَىٰ شَرِيعَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

إِذَا كَانَ الْعَمَلُ خَالِصًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَتَوَفَّرَتْ فِيهِ شُرُوطُ الْمُتَابَعَةِ كَانَ مُسْتَكْمِلًا لِشَرْطَيْ قَبُولِهِ، فَيَكُونُ مَقْبُولًا عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

الْعَمَلُ الَّذِي لَمْ يَشْرَعْهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ بِالتَّزْكِيَةِ وَالتَّطْهِيرِ؛ لِخُلُوِّهِ مِنْ مَادَّةِ التَّطْهِيرِ وَالتَّزْكِيَةِ الَّتِي يُوجِدُهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَشْرَعُهَا وَيَأْذَنُ بِفِعْلِهَا.

الشَّرْعُ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مَا فِيهِ مِمَّا أَمَرَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ، مَا نَهَىٰ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنْهُ أَمْرًا لَازِمًا وَاجِبًا فَكَانَ حَرَامًا، أَوْ غَيْرَ لَازِمٍ فَكَانَ مَكْرُوهًا، هَذِهِ الشَّرِيعَةُ بِأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا وَمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، إِذَا أَخَذَ بِهَا الْإِنْسَانُ كَانَتْ سَبَبًا فِي تَزْكِيَتِهِ، وَفِي طَهَارَةِ قَلْبِهِ وَاسْتِقَامَةِ حَيَاتِهِ، وَنَفْيِ الْقَلَقِ وَالْوَسَاوِسِ عَنْ ذِهْنِهِ وَعَنْ قَلْبِهِ وَعَنْ ضَمِيرِهِ، وَاسْتَقَامَتْ قَدَمَاهُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، لِمَاذَا؟

لِأَنَّ مَا شَرَعَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنْ أَوَامِرِ الْعِبَادَاتِ فِيهِ مَادَّةُ التَّطْهِيرِ وَمَادَّةُ التَّزْكِيَةِ، وَأَمَّا الْعِبَادَاتُ الَّتِي يَخْتَرِعُهَا الْعِبَادُ، فَإِنَّهَا تَخْلُو مِنْ مَادَّةِ التَّطْهِيرِ وَمِنْ مَادَّةِ التَّزْكِيَةِ.

انْظُرْ مَثَلًا إِلَىٰ مَادَّةِ التَّغْذِيَةِ، كَيْفَ أَوْجَدَها اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي الْحُبُوبِ وَالثِّمَارِ وَاللُّحُومِ، فَكَانَ فِي أَكْلِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ غِذَاءٌ لِلْجِسْمِ يَنْمُو عَلَيْهَا وَيَحْتَفِظُ بِقُوَاهُ، لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا أَهْمَلَ هَذِهِ الْمَادَّةَ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ سَبَبًا لِتَغْذِيَةِ الْجِسْمِ وَذَهَبَ يَأْكُلُ الْحَطَبَ وَيَأْكُلُ التِّبْنَ وَيَأْكُلُ الْخَشَبَ وَيَأْكُلُ الْعِظَامَ وَيَأْكُلُ الْبِرْسِيمَ، لَوْ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُؤَدِّيًا بِجَسَدِهِ إِلَىٰ الْهَلَاكِ؛ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي أَتَىٰ بِهِ لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ سَبَبًا لِتَغْذِيَةِ الْأَبْدَانِ، وَهُوَ حَادَ عَمَّا جَعَلَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ سَبَبًا لِتَغْذِيَةِ جَسَدِهِ، وَحِينَئِذٍ لَابُدَّ أَنْ يَعْطَبَ هَذَا الْجَسَدُ وَلَا بُدَّ أَنْ يَهْلِكَ عَلَيْهِ.

الْعَمَلُ بِالْبِدْعَةِ كَالتَّغْذِيَةِ بِالتُّرَابِ وَالْحَطَبِ وَالْخَشَبِ وَالتِّبْنِ، الْعَمَلُ بِالْبِدْعَةِ عَمَلٌ بِمَادَّةٍ تَخْلُو مِنَ التَّطْهِيرِ وَالتَّزْكِيَةِ وَمِنْ سَبَبِ ذَلِكَ، الْعَمَلُ بِالْبِدْعَةِ يُسَاوِي أَنْ يُغَذِّيَ الْإِنْسَانُ بَدَنَهُ بِالتِّبْنِ مَثَلًا، بِالْحَطَبِ، بِالتُّرَابِ، فَالْعَمَلُ بِالْبِدْعَةِ كَالتَّغْذِيَةِ بِالتُّرَابِ وَالْحَطَبِ وَالْخَشَبِ، فَإِذَا كَانَ آكِلُ هَذِهِ الْمَوَادِّ لَا يَتَغَذَّىٰ فَكَذَلِكَ الْعَامِلُ بِالْبِدْعَةِ لَا تَطْهُرُ رُوحُهُ وَلَا تَزْكُو نَفْسُهُ حَتْمًا؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَمْ يَجْعَلْ فِي الْبِدْعَةِ الَّتِي يَخْتَرِعُهَا النَّاسُ، لَمْ يَجْعَلِ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِيمَا لَمْ يُنْزِلِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِهِ سُلْطَانًا لَمْ يَجْعَلِ

اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي ذَلِكَ سَبَبًا لِلتَّزْكِيَةِ وَلَا سَبَبًا لِلتَّطْهِيرِ، فَمَنْ أَتَىٰ بِذَلِكَ مُحَاوِلًا أَنْ يُزَكِّيَ نَفْسَهُ وَأَنْ يُطَهِّرَهَا فَإِنَّهَا لَا يَزِيدُهَا إِلَّا خَسَارًا وَلَا يَزِيدُهَا إِلَّا هَلَاكًا وَدَمَارًا.

كُلُّ عَمَلٍ يُرَادُ بِهِ التَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ الْكَمَالِ وَالسَّعَادَةِ بَعْدَ النَّجَاةِ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْخُسْرَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَالِصًا للهِ تَعَالَىٰ، وَأَنْ يَكُونَ مَشْرُوعًا مُوَافِقًا لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي جِنْسِهِ وَسَبَبِهِ وَكَمِّهِ وَكَيْفِهِ وَزَمَنِهِ وَمَكَانِهِ، فَإِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ طَهُرَتْ رُوحُكَ، وَزَكَتْ نَفْسُكَ، وَاسْتَقَامَتْ حَيَاتُكَ، وَاتَّسَعَ سَبِيلُكَ الَّذِي يُفْضِي بِكَ إِلَىٰ رِضْوَانِ اللهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ.(*)

❊❊❊

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «الِاحْتِفَالُ بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ» - الثُّلَاثَاءُ ٨ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ ١٤٢٨هـ | ٢٧-٣-٢٠٠٧م.

التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ وَالتِّجَارَةُ الْخَاسِرَةُ

«إِنَّ أَكْثَرَ هَذَا الْخَلْقِ قَدْ نَسُوا حَقِيقَةَ أَنْفُسِهِمْ، وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا حَظَّهَا مِنَ اللهِ، وَبَاعُوهَا رَخِيصَةً بِثَمَنٍ بَخْسٍ بَيْعَ الْغَبْنِ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ لَهُمْ هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ، وَيَظْهَرُ هَذَا كُلَّ الظُّهُورِ يَوْمَ التَّغَابُنِ، يَوْمَ يَظْهَرُ لِلْعَبْدِ أَنَّهُ غُبِنَ فِي الْعَقْدِ الَّذِي عَقَدَهُ لِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالتِّجَارَةِ الَّتِي اتَّجَرَ فِيهَا لِمَعَادِهِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَتَّجِرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِآخِرَتِهِ.

فَالْخَاسِرُونَ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الرِّبْحِ وَالْكَسْبِ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَحَظَّهُمْ فِيهَا وَلَذَّاتِهِمْ، بِالْآخِرَةِ وَحَظِّهِمْ فِيهَا، فَأَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، وَاسْتَمْتَعُوا بِهَا، وَرَضُوا بِهَا، وَاطْمَأَنُّوا إِلَيْهَا، وَكَانَ سَعْيُهُمْ لِتَحْصِيلِهَا، فَبَاعُوا وَاشْتَرَوْا وَاتَّجَرُوا وَبَاعُوا آجِلًا بِعَاجِلٍ، وَنَسِيئَةً بِنَقْدٍ، وَغَائِبًا بِنَاجِزٍ، وَقَالُوا: هَذَا هُوَ الْحَزْمُ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ!

فَكَيْفَ أَبِيعُ حَاضِرًا نَقْدًا مُشَاهَدًا فِي هَذِهِ الدَّارِ بِغَائِبٍ نَسِيئَةً فِي دَارٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ هَذِهِ؟!

وَيَنْضَمُّ إِلَىٰ ذَلِكَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ، وَقُوَّةُ دَاعِي الشَّهْوَةِ، وَمَحَبَّةُ الْعَاجِلَةِ، وَالتَّشَبُّهُ بِبَنِي الْجِنْسِ، فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ الَّتِي قَالَ اللهُ

فِي أَهْلِهَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ [البقرة: ٨٦]، وَقَالَ فِيهِمْ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: ١٦].

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ظَهَرَ لَهُمُ الْغَبْنُ فِي هَذِهِ التِّجَارَةِ، فَتَتَقَطَّعُ عَلَيْهِمُ النُّفُوسُ حَسَرَاتٍ.

وَأَمَّا الرَّابِحُونَ فَإِنَّهُمْ بَاعُوا فَانِيًا بِبَاقٍ، وَخَسِيسًا بِنَفِيسٍ، وَحَقِيرًا بِعَظِيمٍ، وَقَالُوا: مَا مِقْدَارُ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا، حَتَّىٰ نَبِيعَ حَظَّنَا مِنَ اللهِ -تَعَالَىٰ- وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا؟!

فَكَيْفَ يَنَالُ الْعَبْدُ مِنْهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الْقَصِيرِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَغَفْوَةِ حُلْمٍ، لَا نِسْبَةَ لَهُ إِلَىٰ دَّارِ الْقَرَارِ أَلْبَتَّةَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ [يونس: ٤٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات:٤٢-٤٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ﴾ [الْأَحْقَافِ: ٣٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١١٤﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

فَهَذِهِ حَقِيقَةُ الدُّنْيَا عِنْدَ مُوَافَاةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَمَّا عَلِمُوا قِلَّةَ لُبْثِهِمْ فِيهَا، وَأَنَّ لَهُمْ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ الدَّارِ، هِيَ دَارُ الْحَيَوَانِ وَدَارُ الْبَقَاءِ؛ رَأَوْا مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ بَيْعَ دَارِ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْفَنَاءِ، فَاتَّجَرُوا تِجَارَةَ الْأَكْيَاسِ، وَلَمْ يَغْتَرُّوا بِتِجَارَةِ السُّفَهَاءِ مِنَ النَّاسِ، فَظَهَرَ لَهُمْ يَوْمَ التَّغَابُنِ رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ وَمِقْدَارُ مَا اشْتَرَوْهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَائِعٌ مُشْتَرٍ مُتَّجِرٌ، وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

فَهَذَا أَوَّلُ نَقْدٍ مِنْ ثَمَنِ هَذِهِ التِّجَارَةِ.

فَتَاجِرُوا أَيُّهَا الْمُفْلِسُونَ، وَيَا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ هَذَا الثَّمَنِ هُنَا ثَمَنٌ آخَرُ، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ التِّجَارَةِ فَأَعْطِ هَذَا الثَّمَنَ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ١١٢]»(١).(*).

---

(١) «الداء والدواء» (ص: ٢٤٥-٢٤٨).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ وَفِقْهُ الْقُلُوبِ» - الْجُمُعَةُ ١٥ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٧هـ | ٢٧-١١-٢٠١٥م.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

«هَذِهِ وَصِيَّةٌ وَدَلَالَةٌ وَإِرْشَادٌ مِنْ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَعْظَمِ تِجَارَةٍ، وَأَجَلِّ مَطْلُوبٍ، وَأَعْلَىٰ مَرْغُوبٍ يَحْصُلُ بِهَا النَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَالْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ.

وَأَتَىٰ بِأَدَاةِ الْعَرْضِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ يَرْغَبُ فِيهِ كُلُّ مُتَبَصِّرٍ، وَيَسْمُو إِلَيْهِ كُلُّ لَبِيبٍ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: مَا هَذِهِ التِّجَارَةُ الَّتِي هَذَا قَدْرُهَا؟ فَقَالَ: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِيمَانَ التَّامَّ هُوَ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِالتَّصْدِيقِ بِهِ، الْمُسْتَلْزِمُ لِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، الَّتِي مِنْ أَجَلِّهَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ﴾: بِأَنْ تَبْذُلُوا نُفُوسَكُمْ وَمُهَجَكُمْ؛ لِمُصَادَمَةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَالْقَصْدُ نَصْرُ دِينِ اللهِ، وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهِ، وَتُنْفِقُونَ مَا تَيَسَّرَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ فِي ذَلِكَ الْمَطْلُوبِ.

فَإِنَّ ذَلِكَ -وَإِنْ كَانَ كَرِيهًا لِلنُّفُوسِ شَاقًّا عَلَيْهَا- فَإِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، فَإِنَّ فِيهِ الْخَيْرَ الدُّنْيَوِيَّ؛ مِنَ النَّصْرِ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، وَالْعِزِّ الْمُنَافِي لِلذُّلِّ، وَالرِّزْقِ الْوَاسِعِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ وَانْشِرَاحِهِ، وَالْخَيْرَ الْأُخْرَوِيِّ؛ بِالْفَوْزِ بِثَوَابِ اللهِ، وَالنَّجَاةُ مِنْ عِقَابِهِ، وَلِهَذَا ذَكَرَ الْجَزَاءَ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾: وَهُوَ شَامِلٌ لِلصَّغَائِرِ

وَالْكَبَائِرِ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِهِ مُكَفِّرٌ لِلذُّنُوبِ وَلَوْ كَانَتْ كَبَائِرَ.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَيْ: مِنْ تَحْتِ مَسَاكِنِهَا وَقُصُورِهَا وَغُرَفِهَا وَأَشْجَارِهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مَنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّىٰ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أَيْ: جَمَعَتْ كُلَّ طَيِّبٍ؛ مِنْ عُلُوٍّ وَارْتِفَاعٍ، وَحُسْنِ بِنَاءٍ وَزَخْرَفَةٍ، حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ يَتَرَاءَاهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا يُتَرَاءَىٰ الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ فِي الْأُفُقِ الشَّرْقِيِّ أَوِ الْغَرْبِيِّ، وَحَتَّىٰ إِنَّ بِنَاءَ الْجَنَّةِ بَعْضُهُ مِنْ لَبِنِ ذَهَبٍ وَبَعْضُهُ مِنْ لَبِنِ فِضَّةٍ، وَخِيَامَهَا مِنَ اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ، وَبَعْضَ الْمَنَازِلِ مِنَ الزُّمُرُّدِ وَالْجَوَاهِرِ الْمُلَوَّنَةِ بِأَحْسَنِ الْأَلْوَانِ، حَتَّىٰ إِنَّهَا مِنْ صَفَائِهَا يُرَىٰ ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مَنْ ظَاهِرِهَا، وَفِيهَا مِنَ الطِّيبِ وَالْحَسَنِ مَا لَا يَأْتِي عَلَيْهِ وَصْفُ الْوَاصِفِينَ، وَلَا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُدْرِكُوهُ حَتَّىٰ يَرَوْهُ، وَيَتَمَتَّعُوا بِحُسْنِهِ وَتَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ بِهِ.

فَفِي تِلْكَ الْحَالَةِ، لَوْلَا أَنَّ اللهَ خَلَقَ أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَأَنْشَأَهُمْ نَشْأَةً كَامِلَةً لَا تَقْبَلُ الْعَدَمَ؛ لَأَوْشَكَ أَنْ يَمُوتُوا مِنَ الْفَرَحِ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يُحْصِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ ثَنَاءً عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ كَمَا أَثْنَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَفَوْقَ مَا يُثْنِي عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَبَارَكَ الْجَلِيلُ الْجَمِيلُ، الَّذِي أَنْشَأَ دَارَ النَّعِيمِ، وَجَعَلَ فِيهَا مِنَ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ مَا يُبْهِرُ عُقُولَ الْخَلْقِ وَيَأْخُذُ بِأَفْئِدَتِهِمْ.

وَتَعَالَىٰ مَنْ لَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، الَّذِي مِنْ جُمْلَتِهَا أَنَّهُ اللهُ لَوْ أَرَىٰ الْعِبَادَ الْجَنَّةَ وَنَظَرُوا إِلَىٰ مَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ لَمَّا تَخَلَّفَ عَنْهَا أَحَدٌ، وَلَمَّا هَنَّاهُمُ الْعَيْشُ فِي هَذِهِ

الدَّارِ الْمُنَغَّصَةِ، الْمَشُوبُ نَعِيمُهَا بِأَلَمِهَا، وَفَرَحُهَا بِتَرَحِهَا.

وَسُمِّيَتِ الْجَنَّةُ جَنَّةَ عَدْنٍ؛ لِأَنَّ أَهْلَهَا مُقِيمُونَ فِيهَا، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا، وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا، ذَلِكَ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ، وَالْأَجْرُ الْجَمِيلُ، الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَا فَوْزَ مِثْلُهُ، فَهَذَا الثَّوَابُ الْأُخْرَوِيُّ.

وَأَمَّا الثَّوَابُ الدُّنْيَوِيُّ لِهَذِهِ التِّجَارَةِ، فَذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أَيْ: وَيَحْصُلُ لَكُمْ خَصْلَةٌ أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا، وَهِيَ: نَصْرٌ مِنَ اللهِ لَكُمْ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ، يَحْصُلُ بِهِ الْعِزُّ وَالْفَرَحُ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ تَتَّسِعُ بِهِ دَائِرَةُ الْإِسْلَامِ، وَيَحْصُلُ بِهِ الرِّزْقُ الْوَاسِعُ، فَهَذَا جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الْجِهَادِ، إِذَا قَامَ غَيْرُهُمْ بِالْجِهَادِ فَلَمْ يُؤَيِّسْهُمُ اللهُ -تَعَالَىٰ- مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، بَلْ قَالَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: بِالثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، كُلٌّ عَلَىٰ حَسَبِ إِيمَانِهِ، وَإِنْ كَانُوا لَا يَبْلُغُونَ مَبْلَغَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ**»(١)(٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: ٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠١٤-١٠١٥).

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- عَنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ؛ مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ فِي الْأَوْقَاتِ الْمَشْرُوعَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَعَلَانِيَةً، ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أَيْ: يَرْجُونَ ثَوَابًا عِنْدَ اللهِ لَا بُدَّ مِنْ حُصُولِهِ؛ فَالْقُرْآنُ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: «**إِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ**»(١)»(٢).

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾: هَؤُلَاءِ يَتَوَقَّعُونَ بِذَلِكَ تِجَارَةً رَابِحَةً نَامِيَةَ الْقِيمَةِ، بَاقِيَةَ الرَّوَاجِ دَائِمًا، لَنْ تَكْسَدَ وَلَنْ تَخْسَرَ.(*).

أَسْأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَنْ يُفَهِّمَنَا حَقِيقَةَ الدِّينِ، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهِ حَتَّىٰ نَلْقَىٰ وَجْهَهُ الْكَرِيمَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*/٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٥٠) واللفظ له، والدارمي (٣٣٩١) بإسناد حسن، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٨٣).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [فاطر: ٢٩].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ وَفِقْهُ الْقُلُوبِ» - الْجُمُعَةُ ١٥ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٧هـ| ٢٧-١١-٢٠١٥م.

الْفِهْرِسُ